
مع الداعية
الإسلامي
تعدد
الزوجات
حقائق وشبهات
د. عبد الله علي سمك
الدار المصرية اللبنانية

تعدد الزوجات

حقائق وشبهات

سمك ، عبد الله على .
تعدد الزوجات : حقائق وشبهات / د. عبد الله على سمك
.ـ ط1.ـ القاهرة : الدار المصرية اللبنانية ، 2008
164 ص ؛24 سم .
تدمك : 1 ـ 393 ـ 427 ـ 977
1 ـ الإسلام وتعدد الزجات
أ ـ العنوان 219,1

الدار المصرية اللبنانية
16 عبد الخالق ثروت القاهرة .
تليفون: 23910250 202 +
فاكس: 23909618 202 + ـ ص.ب 2022
E-mail:info@almasriah.com
www.almasriah.com

رقم الإيداع : 13319 / 2008

الطبعة الأولى : رجب 1429 هـ ـ يوليو 2008 م

تعدد الزوجات

حقائق وشبهات

د. عبد الله على سمك

كلية الدعوة الإسلامية بالقاهرة - جامعة الأزهر

الدار المصرية اللبنانية


بسم الله الرحمن الرحيم

الفهـــرس

المقدمة

الحمد لله، نحمده ونستعينه، ونستهديه ونستغفره، ونؤمن به، ونتوكل عليه، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا، ومن سيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادى له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله، اللهم صلِّ وسلم وبارك على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه، ومن سار على سُنته، والتزم طريقته إلى يوم الدين.

أما بعد:

فقد شاءت إرادة الله تعالى، أن أساهم فى برنامج (حقائق وشبهات) فى إذاعة القرآن الكريم، تقديم الأخ الدكتور فوزى خليل، وقد لاقت موضوعات البرنامج اهتمامًا ملحوظًا من جمهور المستمعين، وألحَّ البعض علىَّ كتابة ما ساهمت به فى هذا البرنامج، فلم أقدر على عدم الاستجابة لمطلبهم وحسن ظنهم بى، فحاولت أن أجمع الشتات من الأوراق والمذكرات؛ لبيان الحقائق والشبهات، فى كل ما يثار حول الإسلام من دعايات، باذلًا الجهد فى عرض الشبهة وتفنيدها، والرجوع إلى المصادر المعتمدة والمعتبرة فى بابها، وليس فى غرضى الآن تقديم الموضوعات مرتبة حسب أهميتها، بل أجتهد فى نشر ما يتيسر لى فى تلك المرحلة، عازمًا - بمشيئة الله تعالى - أن تكون السلسلة مرتبة بعد ذلك؛ فالعلم صيد، والكتابة قيده.

وها هى البداية حول تعدد الزوجات، عرضت فيها لخمس شبهات على النحو التالى:

الشبهة الأولى: تعدد الزوجات نظام بدائى شرعه الإسلام؛ مراعاة لطبيعة العرب الشهوانية.

الشبهة الثانية: تعدد الزوجات أمر دنيوى لا دينى.

الشبهة الثالثة: نفى العدل بين الزوجات دليل على امتناع التعدد ﴿وَلَن تَسْتَطِيعُوٓاْ أَن تَعْدِلُواْ بَيْنَ ٱلنِّسَآءِ﴾[النساء آية:129]..

الشبهة الرابعة: تعدد الزوجات ظلم للمرأة وإهدار لكرامتها، وتمييز للرجل عنها، وسبب لفساد الأسرة، وتشرد الأطفال.

الشبهة الخامسة: لو كان التعدد مباحًا ما منع رسول الله ﷺ على بن أبى طالب من الزواج على فاطمة رضى الله عنها.

الشبهة الأخيرة: تعدد الزوجات للرسول دليل على شهوانيته وسيلة للنساء.

ثم ختمت هذه الشبهات بزواج الرسول ﷺ، وسيرة أمهات المؤمنين. وأفردت له مساحة مناسبة تليق بالموضوع.

أسأل الله بأسمائه وصفاته، أن يجعل ذلك فى موازين حسناتى، وأن يرزقنى التوفيق والسداد، وحسبى الله ونعم الوكيل.

د. عبدالله على سمك

* * *

تمهيد
حقائق بين يدى الموضوع

1 – إن تعدد الزوجات فى شريعة الله رخصة وأمر مباح، وليس فرضًا لازمًا تجب مباشرته ويأثم تاركه، وهو – فى أصل الشريعة – رفع للحرج، ومتسع للبعد عن الظلم لأى امرأة، وعدم التضييق على أى رجل.

قال تعالى: ﴿وَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تُقْسِطُوا فِي الْيَتَامَىٰ فَانكِحُوا مَا طَابَ لَكُم مِّنَ النِّسَاءِ مَثْنَىٰ وَثُلَاثَ وَرُبَاعَ فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تَعْدِلُوا فَوَاحِدَةً أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ ذَٰلِكَ أَدْنَىٰ أَلَّا تَعُولُوا (٣)﴾ [النساء آية:3].

أخرج البخارى فى صحيحه بسنده عن عائشة رضى الله عنها: «أن رجلًا كانت له يتيمة، فنكحها وكان لها عِذْق – عرجون – وكان يُمسكها ولم يكن لها من نفسه شيء، فنزلت فيه ﴿وَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تُقْسِطُوا فِي الْيَتَامَىٰ﴾ أحسبه قال: كانت شريكته فى ذلك العذق، وفى ماله».

وقد ثبت عند البخارى – أيضًا – أن عروة بن الزبير سأل عائشة عن قول الله تعالى: ﴿وَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تُقْسِطُوا فِي الْيَتَامَىٰ﴾ فقالت: يا بن أختي! هذه اليتيمة تكون فى حجر وليها تشركه فى ماله، ويعجبه مالها وجمالها؛ فيريد وليها أن يتزوجها، بغير أن يقسط فى صداقها، فيعطيها مثل ما يعطيها غيره، فنهوا عن أن ينكحوهن إلا أن يقسطوا لهن، ويبلغوا لهن أعلى سُنتهن فى الصداق، فأمروا أن ينكحوا ما طاب لهم من النساء سواهن.

قال عروة: قالت عائشة: «وإن الناس استفتوا رسول الله ﷺ بعد هذه الآية؛ فأنزل الله ﴿وَيَسْتَفْتُونَكَ فِي ٱلنِّسَآءِ﴾ [النساء الآية:127]، قالت عائشة: «وقول الله تعالى فى آية أخرىٰ: ﴿وَتَرْغَبُونَ أَن تَنكِحُوهُنَّ﴾ رغبة أحدكم عن يتيمته حين تكون قليلة المال والجمال»، قالت: «فنُهوا أن ينكحوا عمن رغبوا فى ماله وجماله فى يتامى النساء إلا بالقسط من أجل رغبتهم عنهن، إن كُنَّ قليلات المال والجمال»[1].

فالذى يظهر من آية التعدد، وسبب نزولها ما يلى:

* تكريم لليتيمة، وهى الصغيرة التى مات أبوها، وتولى أمرها من الأولياء مَنْ رغب فى نكاحها طمعًا فى مالها وجمالها، دون أن يعطيها المهر الذى تستحقه.

فجاءت الآية تنهىٰ عن ذلك، وتقولُ للأولياء: اعدلوا مع يتامى النساء إذا أردتم الزواج منهن، فإن خفتم ألا تعدلوا، فالنساء غيرهن كثيرات، فانكحوا غير اليتيمات رفعًا للحرج، ففى الآية تعظيم لتقوى الله تعالى فى معاملة النساء، وخاصة اليتامى منهن، وتأكيد على حفظ حقوقهن، ﴿وَءَاتُواْ ٱلنِّسَآءَ صَدُقَـٰتِهِنَّ نِحْلَةً﴾ [النساء الآية:4]، وتحذير من الطمع فيهن، وبُعد عن الشبهات فى التعامل معهن.

* التأكيد على العدالة مع النساء، والتحذير من ظلمهن، والمعنى: أيها الأولياء، إن كنتم تخافون ألا تقسطوا مع اليتامى فى المعاملة، فخافوا ألا تقسطوا مع النساء، فانكحوا ما طاب لكم من النساء؛ مثنى وثلاث ورباع.

* وقاية المجتمع من أضرار الزنا، والمعنى: إن خفتم الجور فى حق اليتامى، فخافوا الزنا؛ فانكحوا ما حلّ لكم من النساء، ولا تحوموا حول المحرمات.

* جاء الإسلام لا ليُطْلِقَ الزواج بأى عدد من النساء بل حدَّد هذا الأمر، ولم يتركه

---

(1) البخارى: كتاب التفسير، سورة النساء، باب: ﴿وَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تُقْسِطُواْ فِي ٱلْيَتَـٰمَىٰ﴾ حديث رقم (4573).

لهوى الرجل، فأقصى ما يمكن أن يجمعه رجل فى عصمته أربع نساء [1].

الزواج أمر اختيارى لا تُكره عليه المرأة، ولا يُجبر عليه الرجل.

2 – إن إباحة تعدد الزوجات مقيد بشرطين:

الشرط الأول: عدم خوف العدالة.

الشرط الآخر: القدرة على الإنفاق، وخشية الإهمال.

أما الشرط الأول: ففيه جاء قوله تعالى: ﴿فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تَعْدِلُوا فَوَاحِدَةً﴾ [النساء:3].

وعن أبى هريرة رضى الله عنه عن النبى ﷺ قال: «مَنْ كَانَتْ لَهُ امْرَأَتَانِ، فَمَالَ إِلَى إِحْدَاهُمَا جَاءَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَشِقُّهُ مَائِلٌ»، وفى رواية: «وَشِقُّهُ سَاقِطٌ» [2].

أما الشرط الآخر: ففيه جاء قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ أَدْنَىٰ أَلَّا تَعُولُوا ۝٣﴾ [النساء:3].

وعن عبد الله بن عمرو رضى الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: «كَفَى بِالْمَرْءِ إِثْمًا أَنْ يُضَيِّعَ مَنْ يَقُوتُ»، وفى رواية: «مَنْ يَعُولُ»[3].

(1) راجع ما ذكره المفسرون فى تفسير الآية، وقد ذكرنا خلاصة ما قالوه فيها. تفسير ابن كثير (1/ 449)، روح المعانى (4/ 189)، فى ظلال القرآن (1/ 577).

(2) رواه أبو داود فى كتاب النكاح، باب: فى القَسم بين النساء، حديث رقم (2133)، والترمذى فى كتاب النكاح، باب: التسوية بين الضرائر، حديث رقم (1141)، والنسائي: كتاب عشرة النساء، باب: ميل الرجل إلى بعض نسائه، حديث رقم (3942)، وابن ماجه: كتاب النكاح، باب: القسمة بين النساء، حديث رقم (1969)، حديث صحيح.

(3) رواه أحمد فى مسنده (2/ 160)، حديث رقم (6495)، وأبو داود فى كتاب الزكاة، باب: فى صلة الرحم، حديث رقم (1692)، وابن حبان فى صحيحه، باب النفقة، حديث رقم (4240) حديث صحيح.

ولقد اتفق الفقهاء على أن هذين الشرطين لابد من توافرهما لكل من يبغى أن يتزوج، وعنده زوجة، بل إن الزواج الأول الذى لا يرعى فيه الزوج العدل مع زوجته، أو لا يستطيع الإنفاق عليها لا يجوز أصلًا [1].

3 – إن إساءة استخدام هذه الرخصة، لا ينفى تحقق الفائدة منها، وإن فساد الناس وسوء أخلاقهم فى تعدد الزوجات لا يلغى الحكمة من تشريعه، وإن الواقع المؤسف ليس دليلًا على أن التعدد لا يجوز؛ إنه تشريع العليم الحكيم، الذى يعلم من خلق وهو اللطيف الخبير، ولعلنا نلتمس الحكمة من تعدد الزوجات فى الفوائد التالية:

أولًا: مخرج من ارتكاب جريمة الزنا، وحل أزمة العَلاقة الجنسية.

ثانيًا: علاج اجتماعى لنقص يعرض للأمة فى رجالها؛ بسبب الحروب ونحوها.

ثالثًا: صيانة النساء من الابتذال، وحل لمشكلة العنوسة.

رابعًا: صيانة النساء من الضياع، وحل لمشكلة العقم، أو المرض؛ حيث يكون الزوج بين أمرين: الفراق، أو الزواج، ولا شك أن الزواج أهون الضررين، وفيه مصلحة للمرأة، وعدالة للطرفين.

خامسًا: هناك ثروات اقتصادية، ومتطلبات عسكرية، وحقائق سكانية، ومشاكل صحية، وضرورات اجتماعية تجعل التعدد حلًا مقبولًا ومشروعًا ومعقولًا.

4 – إن الإسلام ما شرع تعدد الزوجات ابتداء، ولكن تعدد الزوجات أمر معروف فى جميع الأديان وفى مختلف الأزمان، من القديم حتى الآن، فقد عرفته اليهودية والنصرانية، وأديان فارس والهند والصين، ومصر القديمة، وعرب الجاهلية.

(1) راجع: تنظيم الأسرة وتنظيم النسل: الإمام محمد أبو زهرة (القاهرة: دار الفكر العربى) (ص62).

وكما عرفته الأمم القديمة فى قوانين "مانو" و"حمورابى"، عرفته الأمم المعاصرة فى الإباحية المخزية المهينة للمرأة، المهدرة لكرامتها، دون أن يتحمل الرجل أدنى مسؤولية، وتُعد تجارة البغاء من أكثر أنواع التجارة رواجًا فى العالم، حيث تنافس تجارة السلاح وتجارة المخدرات.

والإسلام ما ترك الأمر على ما توارثته الأجيال، بل كان حماية للمرأة من الاستغلال، وحفاظًا لها من الابتذال.

5 - إن تعدد الزوجات يقع فى إطار مسؤولية الرجل فى حماية المجتمع؛ فالتعدد ليس محاباة للرجل، بل تكليف يجعل الرجل يتحمل أعباءً إضافية، فى إطار المسؤولية الجماعية، لقد أدرك المسلمون الصادقون هذه المسؤولية، فلم يتركوا المرأة المسلمة لحمًا رخيصًا تنهشه الكلاب المسعورة، كما لم يفرضوا عليها رهبانية قاتلة، وحرمانًا ظالمًا، لقد استجابوا لشرع الله، والتزموا منهج الله الذى يتوخى دائمًا أن ينشئ واقعًا يساعد على صيانة الخلق، ونظافة المجتمع، وحفظ الأعراض، وصيانة الحرمات.

إن تعدد الزوجات حق للمرأة على الرجل، وواجب على الرجل تجاه المرأة.

- إنه حق تصرخ به كل شريفة عفيفة، وجدت نفسها محرومة من تحقيق فطرتها، وإشباع غريزتها، تنادى الرجل الكريم بلسان الحال:

- مَنْ يسترنى ويحمينى من الضياع؟
- مَن يقف بجانبى ويكون لى خير راعٍ؟
- مَنْ يؤنس وحدتي؟
- مَنْ يرحم غربتي؟

* كيف يجيب الرجل؟

- هل يهز الأكتاف...؟

- وأصوات الهتاف:

نريدها عشيقة...

نبغاها رفيقة...

نطلبها طليقة؟!

هكذا تكون النهاية؟!.

لا، إن على المرأة أن تطالب بحقها فى:

-أن تكون زوجة لا عشيقة.

- أن تكون سيدة لا رفيقة.

- أن تكون مصونة لا طليقة.

لقد تعرضت شريعة الله فى تعدد الزوجات لجملة من الشبهات تحتاج إلى ردود قاطعات، وفيما يلى بيان بتلك الحقائق والشبهات:-

* * *

الشبهة الأولى
تعدد الزوجات نظام بدائى، شرعه الإسلام، مراعاة لطبيعة العرب الشهوانية

تعدد الزوجات نظام بدائى، دفع إليه طبيعة المجتمعات البدائية، وقد أجازه الإسلام؛ لأن العرب كانت أكثر شهوانية من كثير من الشعوب، وفى هذا الإطار يقول "ول ديورانت" عن نظام تعدد الزوجات: « ولا شك أن تعدد الزوجات ملائم حاجة المجتمع البدائى...».

وفى موضع آخر يقول: «ولقد كانت العرب أكثر شهوانية من كثير من الشعوب، ولهذا أجاز الإسلام تعدد الزوجات» [1].

ومعنى هذا: أن تعدد الزوجات نظام بدائى، أبقى عليه الإسلام؛ مراعاة لطبيعة العرب الشهوانية.

وهناك من يزعم أن تعدد الزوجات من ابتداع محمد الذى أباح نكاح أى عدد من النساء؛ ليستجلب الرجال إلى دينه والنساء كذلك، كما أن تعدد الزوجات شكل من أشكال الرجعية والتخلف.

والجواب عن هذه الشبهة:

إن هذا النظام ما ساد العالم البدائى وحده، بل ساد الإنسانية فى جميع عصورها على النحو التالى:

(1) قصة الحضارة: (1/ 71)، دار الجيل لبنان (1408هـ/ 1988م).

أولًا: أباحت اليهودية تعدد الزوجات، وجواز التسرى بالإماء، وكانت الجارية زوجة شرعية حسب الناموس اليهودى، ولكنها فى درجة أقل من درجة سيدة البيت.

وتزوج نبى الله داود بعشرات النساء بلغت مائة امرأة، ونُسبت له خطايا يندى لها الجبين خجلًا! كما جاء فى كتب اليهود.

أما سليمان الملك الحكيم - بعد أبيه داود، فقد نصَّ سفر الملوك الأول فى مقدمته:

(وأحب الملك سليمان نساء غريبة كثيرة مع بنت فرعون: موآبيات وعمّونيات وأدوميات وصيدونيات وحثيات من الأمم الذين قال عنهم الرب لبنى إسرائيل: لاتدخلون إليهم وهم لا يدخلون إليكم؛ لأنهم يميلون قلوبكم وراء آلهتهم، فالتصق سليمان بهؤلاء بالمحبة. وكانت له سبعمائة من النساء السيدات، وثلاثمائة من السرارى، فأمالت نساؤه قلبه..[1].

ويقول "ول ديورانت" عن اليهود: «وإذا كان الرجل ثريًّا، أُبيح له أن يتزوج بأكثر من واحدة»[2].

ثانيًا: أباحت النصرانية تعدد الزوجات، والقول بالتحريم لا يستقيم للأسباب التالية:

1- من الناحية النظرية:

أ- لا يجوز نقض العهد القديم الذى قرر التعدد دون خلاف.

والمسيح عليه السلام يقول ما نصه[3]: «لا تظنوا أنى جئت لأنقض الناموس، أو

(1) راجع سفر صموئيل الثانى: الإصحاح الحادى عشر.
(2) قصة الحضارة (2/ 379).
(3) إنجيل متى، الإصحاح الخامس (17-19).

الأنبياء. ما جئت لأنقض بل لأكمل؛ فإن الحق أقول لكم: إلى أن تزول السماء والأرض، لا يزول حرف واحد، أو نقطة واحدة من الناموس حتى يكون الكل».

ب – ليس هناك نص يحرم التعدد، وما يستشهد به البعض من سؤال المسيح من قِبَلِ الفريسيين (من فرق اليهود): هل يحل للرجل أن يطلق امرأته؟ ليجربوه!! فأجاب وقال لهم: «بماذا أوصاكم موسى؟» فقالوا: موسى أذن أن يكتب كتاب طلاق؛ فتطلق، فأجاب يسوع وقال لهم: «من أجل قساوة قلوبكم كتب لكم هذه الوصية، ولكن من بدء الخليقة: ذكرًا وأنثى خلقهما الله، من أجل هذا يترك الرجل أباه وأمه ويلتصق بامرأته، ويكون الاثنان جسدًا واحدًا، إذًا ليسا بَعدُ اثنين بل جسد واحد، فالذى جمعه الله لا يفرقه إنسان»[1].

فمفهوم هذا النص ومنطوقه ما يلى:

- أن السؤال عن الطلاق لا عن تعدد الزوجات.
- صيغة الإفراد التى وردت فى إجابة عيسى عليه السلام جاءت لتماثل صيغة الإفراد فى سؤال التلاميذ، فلو كان السؤال عن طلاق النساء لكان الجواب بلزوم النساء، أى: بصيغة الجمع، فالإفراد كان لمطابقة مثيله فى السؤال.
- إذا فهم من قول المسيح: (من طلق امرأته وتزوج غيرها؛ زنا) أنه يحرم التعدد، فما المفهوم من قوله بعد ذلك: (ومن تزوج التى طلقها زوجها؛ زنى) فقد يكون هذا الرجل الذى تزوج المطلقة ليس معددًا؛ لأنه بالنسبة له زوجة أولىٰ، فلِمَ كان زانيًا؟ فهو لم يعدد!! كان زانيًا؛ لأنه دخل بامرأة لا زالت فى عصمة آخر؛ لأن الطلاق لم يعترف به، لا لأنه عدد الزوجات(2).

(1) إنجيل مرقس، الإصحاح العاشر (2-9)، وقارن هذا النص مع متى (5: 31، 19:9) ومع لوقا (16:18).
(2) بين الإسلام والمسيحية لأبى عبيدة الخزرجى، حققه د. محمد شامة. مكتبة وهبة (ط2 ص ص83، 84).

* إن اليهود -فى شريعتهم- يعطون المطلقة كتابًا فيه تاريخ الطلاق وموضوعه وسببه، ويسمح لها بالزواج بمن شاءت، كما جاء فى سفر التثنية (24: 1-4)، وأرميا (3: 8).

• إن الأنبياء قد جمعوا بين أكثر من امرأة، ويكفى أن نقول: إن إبراهيم أبا الأنبياء فى اليهودية والمسيحية والإسلام قد تزوج بسارة وهى أخته بنت أبيه وليست بنت أمه، كما جاء فى سفر التكوين (20: 10) وجمع معها هاجر المصرية زوجة، فولدت هاجر إسماعيل كما جاء فى سفر التكوين مفصلًا فى الإصحاح السادس عشر، وقد تزوج يعقوب- أحد الآباء الثلاثة للعبرانيين- أكثر من زوجة فقد جمع بين أربع نساء مع امرأتين وهما: ليئة وراحيل- وهما أختان- ابنتا خاله لابان، وسُرِّيَّتين -جاريتين - وأنجب أحد عشر ولدًا ذكرًا وأنثى [1].

• إن هذه الوحدة المجازية التى تشير إلى وحدة الزوج مع زوجته لا تمنع تعدد الزوجات.

فقد جاء فى إنجيل يوحنا - الإصحاح السابع عشر- ما يفيد أن الوحدة المجازية يمكن أن تتجاوز الاثنين (ليكون الجميع واحدًا) [2].

ج – ضرب المسيح عليه السلام أمثالًا من واقع الحياة، وأصدر أحكامه فيها صراحة، ومن تلك الأمثال التى تقرر تعدد الزوجات ما جاء فى إنجيل متى (25:1-13) حيث جمع عشر عذارىٰ لمقابلة عريس واحد، وهو بهذا المثل ينسجم تمامًا مع الناموس الذى جاء به موسى عليه السلام وفيه: مشروعية تعدد الزوجات.

2 – من الناحية العملية:

إن تعدد الزوجات أمر معروف، ومطبق عند بعض الطوائف النصرانية: قديمًا وحديثًا.

(1) يوحنا (17: 21).
(2) راجع سفر صموئيل الثانى: الإصحاح الحادى عشر.

فعلى سبيل المثال لا الحصر: الكنيسة الأسقفية -الإنجليكانية- التى ظهرت عام 1521م والتى تنطلق من إنجلترا وتنتشر فى أمريكا والهند وباكستان وبورما وسيلان وأستراليا ونيوزلندا وفى مصر، يرأس الكنيسة الأسقفية المطران: "غايس عبدالملك"، تسمح هذه الكنيسة بتعدد الزوجات للمسيحيين فى أفريقيا. بل تجاوز الأمر إلى الدفاع عن الشواذ جنسيًّا، والادعاء بأن بعض الناس قد خلقهم الله يميلون إلى الجنس، وأنه لا ذنب لهم فى هذا الأمر[1].

أما طائفة المورمون التى أسسها "جوزيف سميث" فى نيويورك عام 1830م، فتعتقد أنها تمثل الكنيسة الحقيقية التى أسسها يسوع المسيح، وأما باقى الكنائس فى العالم، فليست هى التى أرادها السيد المسيح.

ومما دعت إليه طائفة المورمون: تعدد الزوجات، وقد تزوج "برجهام يونج" الذى تولىٰ قيادتهم بعد "جوزيف سميث" سبع عشرة زوجة وأنجب ستة وخمسين ولدًا.

والمورمون أكثر المجتمعات الأمريكية استقرارًا ومحافظة على القديم[2]، ومعروف أن الإرساليات النصرانية لا تمنع الأفارقة من تعدد الزوجات حتى للقسيس فى الكنيسة الإفريقية، وتحرم هذا على زميله فى أوروبا، والسبب فى ذلك أنها لو حاولت منع الأفارقة فلن يعتنقها إلا النادر.

ولا ندرى أى النصرانية موافقة لرسالة المسيح؟

التى تحرم التعدد، أم التى تبيحه؟

بقى أن نقول:

---

(1) الطوائف المسيحية فى مصر والعالم: "ماهر يونان" ط 31 ص ص(174 -176) بتصرف.
(2) المرجع السابق (ص ص239 -240) بتصرف.

إن القديس "أوغسطين" (354 – 430م) قد استحسن أن يتخذ الرجل سُرِّيـة – جاريـة– مـع زوجتـه إذا عقمـت، كـما اعترفـت الكنيسة بأبنـاء شرعيـين للملـك "شارلمان" (742– 814م) من عدة زوجات.

ويذكر "ديورانت" عن "شارلمان" بأنه قد جرى على سنة أسلافه (فاتخذ له أربـع أزواج؛ واحدة بعد الأخرى، وأربع عشيقات أو حظايا، ذلـك أن حيويتـه الموفـورة جعلته شديد الإحساس بمفاتن النساء، وكانت نـساؤه يـؤثرن أن يكـون للواحـدة منهن نصيب منه على أن يكون لها رجلًا آخر بمفردها، وقد ولدت لـه نـساؤه نحـو ثمانية عشر من الأبناء والبنات، فيهم أربعة شرعيون) [1].

يقول "وستر مارك":

"إن تعدد الزوجات باعتراف الكنيسة بقى إلى القرن السابع عشر، وكـان يتكـرر كثيرًا فى الحالات التى لا تحصيها الكنيسة والدولة.

إن سياسة الكنيسة فى نـشر عقائـدها، تحـرم وتحلـل لترغيـب النـاس فى اعتنـاق المسيحية، ثم يصير ما حللته، أو حرمته بمرور الزمن شريعة تـدافع عنهـا الأجيـال اللاحقة، كأنه نزل من السماء ولم يكن سوى تحريف لشريعة الله!!!" [2].

ثالثًا: إن العرب قبل الإسلام عرفوا تعدد الزوجات ومارسوه، وكان عرفًا سائدًا لديهم ولم ينكروه.

(ومن حق الرجل فى الجاهلية أن يتزوج مـا يـشاء مـن النـساء مـن غـير تحديـد ولاحصر، إذ لم تحدد شرائعهم للرجـال عـددًا معينًـا مـن نـسائهم)[3]. وممـا أطلقـه

(1) قصة الحضارة: (14/ 243).

(2) بين الإسلام والمسيحية ص(84).

(3) المفصل فى تاريخ العرب قبل الإسلام: د. جواد على (بيروت دار العلم للملايين، بغداد: مكتبة النهضة، ط3، 1980م، 4 ص ص633، 634).

العرب على زوجات الرجل الواحد: الضرائر. قال ابن منظور فى لسان العرب:

(وضَرَّة المرأة امرأة زوجها، والضرتان: امرأتا الرجل، كل واحدة منهما ضَرَّة لصاحبتها... والضِّرُّ بالكسر: المرأة على ضرة، يقال: نكحت فلانة على ضِر وضُر، أى: امرأة كانت قبلها.. سميتا ضَرَّتين؛ لأن كل واحدة منهما تضار صاحبتها، وكره فى الإسلام أن يقال لها: ضرة، وقيل: جارة، كذلك جاء فى الحديث [1]، ففى صحيح البخارى وغيره من حديث عبد الله بن عباس رضى الله عنهما قال: لم أزل حريصًا على أن أسأل عمر عن المرأتين من أزواج النبى ﷺ، اللتين قال الله لهما: ﴿إِن تَتُوبَآ إِلَى ٱللَّهِ فَقَدۡ صَغَتۡ قُلُوبُكُمَا﴾ [التحريم:4].

وفى الحديث أنهما عائشة وحفصة، وكلام عمر لابنته حفصة: «**ولا يغرنك أن كانت جارتك هى أوضأ منك وأحب إلى رسول الله ﷺ يريد عائشة**»[2].

فقد عبَّر عمر بكلمة «جارتك».

وإذا كان الإسلام قد كره لفظ الضرة للزوجة الأخرى، فقد عمل على تحديد عدد الزوجات، ففى صحيح ابن حبان، وغيره عن ابن عمر قال: أسلم غيلان الثقفى وعنده عشر نسوة، فقال رسول الله ﷺ: «أمْسِكْ أربَعاً، وفَارِقْ سائِرَهُن»[3].

وعند أبى داود: قال وهب الأسدى: أسلمت وعندى ثمان نسوة، فذكرت ذلك للنبى ﷺ، فقال النبى ﷺ: « اخْتَرْ مِنْهُنَّ أَرْبَعًا»[4].

والروايات فى هذا المعنى كثيرة.

---

(1) راجع لسان العرب، مادة ضرر.

(2) البخارى كتاب المظالم، باب: الغرفة والعلية المشرفة، حديث رقم (2336).

(3) صحيح ابن حبان: كتاب النكاح، باب: نكاح الكفار، حديث رقم (4157). قال الشيخ شعيب الأرنؤوط: رجاله ثقات، رجال الشيخين.

(4) أبو داود: كتاب الطلاق، باب: من أسلم وعنده نساء أكثر من أربع، أو أختان، حديث رقم (2241) وقال الشيخ الألبانى: صحيح.

رابعًا: إن الأمم القديمة شاع فيها نظام تعدد الزوجات، ولم يكن هذا خاصًّا بالأمم البدائية، بل شمل حضارات العالم القديم فى بلاد اليونان والرومان، فضلًا عن بلاد مصر وفارس والهند والصين، وإنما ذكرنا بلاد اليونان والرومان لما يعتقده الكثيرون من نبوغ ومدنية، وتفوق وتقدمية، لعبقرية اليونان، وفقه الرومان.

أما العبقرية اليونانية فقد جعلت تعدد الزوجات أمرًا معروفًا بين المواطنين والحكام.

لقد ذكر "ديورانت" أنه كان "لتسيوس" زوجات بلغن من الكثرة درجة لم يحاول معها مؤرخ أن يترك لنا إحصاءً لهن موثوقًا به[1].

فإذا انتقل "ديورانت" إلى الآلهة اليونانية، فهو يقرر: أن اليونان لم يكونوا يفرقون بين الآدميين والآلهة بقدر ما نفرق نحن بينهم، فقد كان كثير من آلهتهم لا يقلون فى آدميتهم عن القديسين عندنا، اللهم إلا فى مولدهم، وكانوا قريبين إلى عُبادهم قرب القديسين إلينا... [2].

ويفصل لنا "ديورانت" زوجات رب الأرباب "زيوس" زوجته الأولى: "متيس" إله الكيل والعقل والحكمة، والثانية: ثميس، والثالثة: "يورنيوم"، والرابعة: "فموسينى"، والخامسة: "ليتو"، والسادسة: "دمتر"، والسابعة: "هيرا"، والزوجات السبع من الآلهة، ثم ينتقل من الزواج الإلهى إلى الزواج الآدمى، وكانت نيوبى أولى زوجاته من الآدميين، وكانت آخرهن ألكمينا [3].

ويذكر ديورانت (أنه كان فى وسع الرجل أن يتخذ له - فضلًا عن زوجته - خليلة يعاشرها معاشرة الأزواج، وينقل ديورانت لنا قول "ديمستين" السياسى

(1) قصة الحضارة: جـ6 هامش ص(97).
(2) المرجع السابق (ص327).
(3) المرجع السابق (ص330).

والخطيب اليونانى الشهير[1]:

(إنا نتخذ العاهرات للذة، والخليلات لصحة أجسامنا اليومية، والأزواج ليلدن لنا الأبناء الشرعيين، ويُعنين ببيوتنا عناية تنطوى على الأمانة والإخلاص)[2].

وفى هذه الجملة الواحدة العجيبة جمع "دمستين" رأى اليونان فى المرأة إبان عصرهم الذهبى، وتبيح قوانين "دراكون" التسرى. ولما أن قضت الحروب على العدد الكبير من المواطنين بعد الحملة التى سُيرت على صقلية سنة 415 ق.م، ولم تجد كثيرات من البنات أزواجًا لهن، أباح القانون صراحة الزواج باثنتين [3].

إن الزواج بأكثر من واحدة من الناحية القانونية لم يمنع انتشار الانحلال الأخلاقى بجميع صوره فى المجتمع اليونانى، وقد استمر ذلك فى المجتمع الرومانى، وفى هذا المعنى يقول ديورانت: "ولكن الرجال فى رومة لم يكونوا يلامون كثيرًا على عدم العفة قبل الزواج إذا أظهروا الاحترام الواجب لرياء بنى الإنسان ونفاقهم، شأنهم فى هذا شأن الرجال فى بلاد اليونان"[4].

ويقدم لنا ديورانت أنواع الزواج عند الرومان، من ذلك: (زواج وضع اليد)، وكان يتم إما بالمعاشرة مدة عام، أو بالشراء من قبل الرجل، أو من قبل المرأة بعد ذلك [5].

(وكان القانون يعترف بالتسرى بديلًا من الزواج، لا مصاحبًا له... ولم يكن أبناء السرارى يعدون أبناء شرعيين، أو يجعل لهم حق الإرث، ومن أجل ذلك كان اتخاذ

(1) المرجع السابق (ص330).
(2) المرجع السابق (7ص ص114، 115).
(3) المرجع السابق (7ص ص114، 115).
(4) المرجع السابق (9ص 141).
(5) المرجع السابق (9ص 143).

السرارى أمرًا محببًا كل الحب للرجال الذين يتكالب عليهم من يسعون لأن يوصى لهم بأملاكهم)[1].

أما فى مصر فيذكر "ديورانت" شيوع النساء والزواج بالأخوات بين المصريين (وكثيرًا ما كان الملك يتزوج أخته، بل كان يحدث أن يتزوج ابنته؛ ليحتفظ بالدم الملكى نقيًا خالصًا من الشوائب... وانتقلت عادة الزواج بالأخوات من الملوك إلى عامة الشعب... وكان للملك -فضلًا عن أخواته- عدد كبير من النساء من أسيرات الحروب، وبعضهن من بنات الأعيان، أو ممن أهداهن إليه الأقيال الأجانب، من ذلك أن أحد أمراء بلاد نهريتا أهدى إلى "أمنحوتب" الثالث ابنته الكبرى وثلثمائة من صفوة الفتيات[2]، والواقع أننا نجد مقابر لزوجات كل ملك، أو فرعون مصرى، كما هو واقع فى كثير من المواقع الأثرية [3].

بل يعد تعدد الزوجات فى مصر مصدرًا لشيوع تعدد الزوجات فى بلاد الإغريق، وكان التعدد حقًّا للملوك وعامة الشعب.

(إلا أن النساء المصريات كن يحتطن ضد هذا التعدد بتضمين عقد الزواج شروطًا: الهدف منها: حماية الزوجة، وقد اقتفى القانون البطلمى أثر القانون المصرى فى هذا الخصوص حيث لم يرد به نصٌّ صريح يحرم التعدد...) [4].

يقول "ديورانت": «ولم يكن القانون يشجع البنات على أن يظللن عذارى، ولاالعزاب على أن يبقوا بلا زواج، ولكنه يبيح التسرى وتعدد الزوجات..» [5].

(1) المرجع السابق (369/10).
(2) المرجع السابق (95/2).
(3) راجع مصر القديمة، سليم حسن:(3/ 37).
(4) راجع: الأسرة بين التشريع الإسلامى والقوانين الوضعية: رسالة دكتوراه، إعداد الباحث: فوزى محمد محمد شرف الدين - كلية الآداب - الزقازيق 1409هـ/ 1989م/ ص (143).
(5) المرجع السابق 440/2، وانظر مصر القديمة/ سليم حسن (622/13).

أما فى فارس فقد كان تعدد الزوجات فيها أمرًا مباحًا.

أما فى الهند فإن ديورانت ينقل لنا عن الأخلاق والزواج فى الهند ما يلى:

(وأحكم الزواج بزواج يدبره الوالدان مراعيين فيه كل قواعد الزواج من داخل، أو خارج، فالشاب ينبغى أن يتزوج داخل طبقته الاجتماعية، لكنه يختار زوجته – من خارج مجموعته العائلية–، وله أن يتزوج من زوجات كثيرات، لكن واحدة منهن فقط يكون لها السيادة على الأخريات...)[1].

وفى موقع آخر يقول: «وفى مقدور الزوج إذا ما شربت زوجته الخمر، أو إذا مرضت، أو إذا شقت عليه عصا الطاعة، أو كانت مسرفة، أو شكسة أن يتزوج من غيرها فى أى وقت شاء لا أن يطلقها..»[2].

أما فى بلاد الصين فقد كان تعدد الزوجات نظامًا شائعًا، يعدونه وسيلة لتحسين النسل، والحفاظ على الزوج، ويقر "ديورانت" ذلك بوضوح، ومما قاله: «وكثيرًا ما كان يحدث أن الزوجات اللاتى يرغبن فى أن يحتفظن بأزواجهن داخل بيوتهن، يطلبن إليهم أن يتزوجوا بالمحاظى اللاتى يؤثرونهن بالعناية والصلات الجنسية، وأن يأتوا بهن إلى منازلهم ويتخذونهن فيها زوجات من الدرجة الثانية»[3].

هذه سياحة سريعة فى الأمم القديمة، ذات الحضارات المعروفة، وليس منها، أو فيها مجتمع بدائى، وقد ظهر فى تلك الأمم نظام تعدد الزوجات دون نكير.

بقى أن نتناول أوضاع الغرب بعيدًا عن عصور الظلام حتى لا نتهم بالتحامل على أحد، فلننطلق من عصر النهضة إلى حضارتنا المعاصرة، بعيدًا عن المجتمعات البدائية، ومعنا صاحب الشبهة ول ديورانت؛ ليدحض الشبهة من أساسها، كما

---

(1) الأسرة بين التشريع الإسلامى والقوانين الوضعية (177/3).

(2) المرجع السابق (180/3).

(3) المرجع السابق (270/4).

صنع فى حديثه عن الحضارات القديمة فى اليونان والرومان ومصر وفارس والهند والصين، فمن كلامه نرد عليه.

خامسًا: عصر النهضة الأوروبية:

يحدثنا «ول ديورانت» بكل أسى وأسف عن الانحلال الخُلقى ومنابع الفساد الخُلقى وأشكاله، ويصور لنا بشاعة أخلاق رجال الدين، والحياة الخليعة التى يصورها الأدب الإيطالى عن حياة رجال الدين، وما فيها من دعارة وقذارة، ووصف الرهبان بأنهم خدم الشيطان، وأنهم منغمسون فى الفسق واللواط والشره، وبيع الوظائف الدينية والخروج على الدين.

والعجيب أن ديورانت حين ينتقل إلى أخلاق غير رجال الدين، ويبدأ بذكر العلاقة بين الرجال والنساء نسجل عليه هذه الحقيقة: (إن الإنسان بفطرته ينزع إلى تعدد الأزواج، وأنه لا شيء يستطيع أن يقنعه بالزوجة الواحدة إلا أقسى العقوبات، ودرجة كافية من الفقر والعمل الشاق، ومراقبة زوجته له مراقبة دائمة).

أليست هذه الشهادة كافية فى الرد على هذه الشبهة التى أثارها ديورانت نفسه، فهو يعترف - بما لا يدع مجالًا للشك - أن التعدد فطرة وليست نظامًا بدائيًّا يتناسب مع المجتمعات البدائية.

إننا نقرر أن الرجل كفانا مؤونة البحث، لا سيما إذا تذكرنا أن الإنسان المعاصر يمارس هذا التعدد بطريقة مشروعة، كما يحدث بين أتباع الأديان المعروفة: الإسلام، واليهودية، والنصرانية، كما أنه يمارس هذا التعدد بطريقة غير مشروعة، وهذا واضح فى إشباع الرغبة الجنسية عن طريق الزنا واتخاذ العشيقات والخليلات.

ويبقى السؤال: هل كان العرب أكثر شهوانية حتى أجاز لهم الإسلام تعدد الزوجات؟

إن المتأمل فى تاريخ الحضارات الإنسانية يدرك - بما لا يدع مجالًا للشك - أن العرب ما كانوا أكثر شهوانية من غيرهم حتى أجاز لهم الإسلام تعدد الزوجات.

ولندع ول ديورانت – دون غيره – يدحض هذا القول، كما دحض قوله السابق، واعترف- صراحة- أن الإنسان بفطرته ينزع إلى تعدد الأزواج... وها هو يسوق فى موسوعته (قصة الحضارة) ما ينافى ما ادعاه هو نفسه من: أن العرب كانت أكثر شهوانية من غيرهم حتى أجاز لهم الإسلام تعدد الزوجات، حيث بلغت الحضارات السابقة على الإسلام واللاحقة ما يؤكد أن شهوانية هذه الحضارات تجاوزت السلوكيات الفردية، أو الجماعية إلى الاعتقاد الدينى بمشروعيتها؛ فأصبحت معتقدات تلك الحضارات لا تبيح الجنس فحسب، بل تعده واجبًا مقدسًا يمارسه الكهنة، وينغمس فيه رجال الدين، حتى غدت الشهوانية والعلاقات الجنسية ليست مقصورة على الطبيعة الإنسانية، وإنما صارت عقيدة دينية تمارسها الآلهة، ونواب الآلهة، وهو أمر فاق الحياة العربية، ولم نجد له أثرًا عند العرب فى تاريخهم القديم والحديث.

1- ففى (حضارة سومر) كانت عاهرات المعابد حيث (كان يتصل بالهياكل عدد من النساء منهن خادمات، ومنهن سرارى للآلهة، أو لمثليهم الذين يقومون مقامهم على الأرض، ولم تكن الفتاة السومرية ترى شيئًا من العار فى أن تخدم الهياكل على هذا النحو، وكان أبوها يفخر بأن يهب جمالها ومفاتنها؛ لتخفيف ما يعترى حياة الكهان المقدسة من ملل وسآمة...)[1].

2- وفى حضارة مصر برزت آلهة العلاقات الجنسية، (وكان المصريون يقدسون المعز والعجل تقديسًا خاصًا، ويعدونهما رمز القدرة الجنسية الخالقة، ولم يكونا مجرد رمزين "لأوزير" بل كانا تجسيدًا له، وكثيرًا ما كان أوزير يرسم وأعضاؤه

(1) قصة الحضارة: (2/ 32).

التناسلية كبيرة بارزة، دلالة على قوته العظمى، وكان المصريون فى المواكب الدينية يحملون له نماذج بهذه الصورة، أو أخرى ذات ثلاثة قضبان، وكان النساء فى بعض المناسبات يحملن مثل هذه الصور الذكرية، ويحركنها تحريكًا آليًا بالخيوط، والعبادة الجنسية لا تظهر فقط فى الرسوم الكثيرة التى نراها فى نقوش الهياكل ذات قضبان منتصبة، بل إنَّا - فضلًا عن هذا- نراها كثيرًا فى الرموز المصرية على هيئة صليب ذى مقبض، كان يتخذ رمزًا للاتصال الجنسى وللحياة القوية) [1].

3- وفى (حضارة بابل) شاع العهر المقدس، وغير المقدس، وعمَّ الانحلال الأخلاقى. ومما سجله ديورانت فى هذا الشأن:

«ينبغى لكل امرأة بابلية أن تجلس فى هيكل الزهرة مرة فى حياتها، وأن تضاجع رجلًا غريبًا...» وكانت عاهرات الهياكل كثيرات فى غربى آسيا، نجدهن عند بنى إسرائيل، وفى فيرجينيا وفينيقية وغيرها من الأقطار... وظلت الدعارة المقدسة عادة متبعة فى بابل حتى ألغاها "قسطنطين" (حوالى عام 325 ق. م)، وكان بجانبها عهر مدنى منتشر فى حانات الشرب التى يديرها النساء، وكان يسمح للبابليين فى العادة بقسط كبير من العلاقات الجنسية قبل الزواج... ، (وسرت عادات العاهرات إلى جميع الأوساط)، «ليس ثمة أغرب من أخلاق هذه المدنية، فلسنا نجد فى أى مكان آخر ما نجده فيها من تهيئة كل شيء على خير وجه لإشباع الملذات الشهوانية» [2].

4- وفى حديث ديورانت عن اليهود يشير بسرعة إلى نبى الله داود وما ارتكبه - حاشاه- من خطيئة الزنا، فيقول: «ويأخذ امرأة أورية الحثى بين نسائه فى غير حياء، ويرسل أورية إلى الصف الأول فى ميدان القتال؛ ليتخلص منه، وتقبل زجر ناثان له فى ذلة) [3].

(1) قصة الحضارة ص ص (158، 159).

(2) المرجع السابق (2 ص ص229- 235).

(3) المرجع السابق ص (331).

وهو يشير إلى ما ورد فى الكتاب المقدس ونصه: «وكان فى وقت المساء أن داود قام عن سريره، وتمشى على سطح بيت الملك، فرأى من على السطح امرأة تستحم، وكانت المرأة جميلة المنظر جدًّا، فأرسل داود وسأل عن المرأة، فقال واحد: أليست هذه "بتشبع" بنت "أليعام" امرأة أوريا الحثى، فأرسل داود رسلًا وأخذها، فدخلت عليه، فاضطجع معها وهى مطهرة من طمثها، ثم رجعت إلى بيتها، وحبلت المرأة؛ فأرسلت وأخبرت داود وقالت: إنى حُبلى...».

والقصة مفصلة فى سفر الملوك الثانى (صموئيل الثانى) الإصحاح الثانى عشر لمن يريد أن يقرأها.

أما سليمان فعنه يقول ديورانت: «واستخدم بعض هذه الثروة فى ملاذه الشخصية، وأخص ما استخدمها فيه: إشباع شهواته فى جمع السرارى، وإن كان المؤرخون ينقصون زوجاته السبعمائة وسراريه الثلثمائة إلى ستين وثمانين على التوالى»[1]. ومع أننا نرفض رفضًا قاطعًا ما هو منسوب إلى الأنبياء الأتقياء، إلا أننا نريد أن نسجل على هذا أقواله، ردًّا على شبهته.

ويتناول ديورانت القصص الغرامية الساحرة الواردة فى التوراة مثل: قصة إسحاق ورفقة، ويعقوب وراحيل، وشمشون ودليلة، واستر. ويذكر ديورانت أن مزامير داود تحتل المكان الأول فى شعر العالم الغنائى، ثم يمضى فى حديثه ويقول: «وإذا ما وضعنا إلى جانب هذه المزامير (نشيد سليمان)، لاح لنا ما فى الحياة اليهودية من عنصر شهوانى دنيوى، لعل كُتَّاب العهد القديم - وهم الذين يكادون كلهم أن يكونوا من الأنبياء والكهنة - قد أخفوه عنا، كما يكشف (سفر الجامعة) عن تشكك لانتبينه فيما عُنى الكتاب باختياره ونشره من أدب الأقدمين.... ولسنا ندرى كيف غفل - أو تغافل - رجال الدين عمّا فى هذه الأغانى من عواطف شهوانية، فأجازوا وضعها بين أقوال إشعيا والخطباء»[2].

(1) قصة الحضارة ص(333).

(2) المرجع السابق (2/388).

ونحن نقول لديورانت: إذا كنت لا تدرى كيف غفل - أو تغافل - رجال الدين عن تلك الأغانى والعبارات الساقطة التى لا يليق أن نسجلها، فإننا ندرى أن الذين نسبوا إلى أنبيائهم - زورًا وبهتانًا- خطايا يندىٰ لها الجبين، لا يتورعون أن يجعلوا كتابهم المقدس صورة حقيقية تعكس طبيعة حياتهم وأخلاقهم، حتى صار اليهود عند كل المراقبين فى القديم والحديث: ملوك الجنس والدعارة فى العالم.

وقد قال فيهم المسيح عليه السلام: «ويل لكم أيها الكتبة والفريسيون المراؤون؛ لأنكم تنقون خارج الكأس والصحفة، وهما من داخل مملوآن اختطافًا ودعارة»[1].

وها هو ديورانت يعترف صراحة بهذا الانحلال الأخلاقى رغم الوصية بالزواج فيقول:

«ولكن الزنا كان -رغم هذا- منتشرًا بين اليهود، ويلوح أن اللواط لم ينقطع بعد تدمير سدوم وعمورة -مكان قوم لوط-، ولما كان القانون فيما يلوح لم يحرم الاتصال بالعاهرات والأجنبيات، فإن السوريات والمؤابيات والمدنيات وغيرهن من النساء العزبات انتشرن فى الطرق العامة، حيث كن يعشن فى مواخير وخيام، ويجمعن بين الدعارة وبيع مختلف السلع الصغيرة، ولما كان سليمان! لا يتشدد كثيرًا فى هذه الأمور، فإنه قد تساهل فى تطبيق القانون الذى كان يحرم على تلك النساء السكنى فى أورشليم، وسرعان ما تضاعف عددهن حتى كان الهيكل نفسه- فى أيام المكابيين ماخورًا- للفسق والفجور...»[2].

5- فإذا انتقلنا (إلى حضارة الهند)، فإن ديورانت ينقل لنا أن كتاب (كاما سُوترا) ومعناها: (مذهب الشهوة) هو أشهر كتاب من بين مجموعة كبرى، كلها تعبر عن اشتغال عقولهم -أى الهنود- إلى حدٍّ ملحوظ بفنون العلاقة الجنسية فى صورتها الجسدية والعقلية...

(1) إنجيل متى ص ص (23: 25).
(2) قصة الحضارة (2 ص378).

ويذكر «ديورانت»: أن الزنا فى الأعم الأغلب كان مقصورًا على المعابد، ففى الأصقاع الجنوبية كانت رغبات الرجل الشهوانى تشبعها له من كنَّ يطلق عليهن: خادمات الله، طائعات فى ذلك أوامر السماء، وما خادمات الله إلا العاهرات[1].

6- أما عن (حضارة الصين) فيقول «ديورانت»: "وكان الزنا عند الرجال من الشهوات المألوفة الواسعة الانتشار، يستمتع به الرجل كما يشتهى من غير أن يناله من ورائه أى عار إلا ما ينال المفرط فى أية عادة من العادات، وكان إعداد النساء لإشباع هذه الشهوات من النظم المقررة فى الصين من زمن بعيد، من ذلك أن الوزير الشهير "جوان جونج" وزير ولاية (لاتش) أعد مقرًّا للقوادات تُؤخذ فيه من التجار القادمين من الولايات الأخرى مكاسبهم قبل أن يعودوا إلى أوطانهم".

ويقول "ماركوبولو": إنه شاهد فى عاصمة (كويلاى خان) من العاهرات ما لايحصى عددهن، وما لا يتصور العقل جمالهن، وهؤلاء البغايا مرخص لهن بمزاولة مهنتهن، وتنظم الدولة أمورهن وتراقبهن من الوجهة الطبية، وتقدم أجملهن - دون أجر - إلى أعضاء السفارات الأجنبية[2].

ويمضى «ديورانت» فى حديثه عن الدعارة فى المجتمع الصينى، ويؤكد أن الرجال كانوا يستمتعون بحرية واسعة فى صلاتهم بالنساء قبل الزواج[3].

7- وفى بلاد اليابان يحدثنا ديورانت عن الأخلاق الجنسية، يقول: «سبق الزوجات أزواجهن فى عالم الزنا، بحيث كن يبعن العفة بقول جميل يقال». ويصور لنا ديورانت أن القوم نظروا إلى شهوات الجسد، نظرتهم إلى أمر طبيعى، كما ينظرون إلى الجوع والظمإ، فترى آلاف الرجال - وكثير منهم أزواج محترمون -

(1) قصة الحضارة: (3ص ص174، 175).

(2) المرجع السابق : (4 ص ص267، 268).

(3) المرجع السابق : (4 ص ص267، 268).

يحتشدون ليلًا في (يوشي وارا) -أي: حي الزهر في طوكيو-، ففي ذلك الحي منازل خرجت على النظام، يسكنها خمس عشرة ألف امرأة زانية رخص لهن بالزنا ومهرن فيه، تراهن في الليل جالسات وراء شيش نوافذهن، فاخرات الثياب بيضاوات بها وضعنه على أجسادهن من مساحيق، مستعدات للغناء والرقص والدعارة لمن ليس له امرأة عشيرة من الرجال، أو لمن ساءت عشيرته منهم، وأعلى هؤلاء الزانيات ثقافة هن فتيات (الجيشا)... وما أكثر القصص اليابانية التي تُروى عن بنات أسلمن أنفسهن لهذه الحرفة؛ إنقاذًا لأسراتهن من أنياب الجوع[1].

8- وفي (بلاد اليونان) يطيل - ديورانت - النفس في العلاقات الجنسية عند اليونان ويقول:

«وكانت أثينا تعترف بالبغاء رسميًّا وتفرض ضريبة على البغايا، وأصبح العهر في أثينا، كما أصبح في معظم مدن اليونان مهنة كثيرة الرواد، ذات فروع مختلفة لكل فرع إحصائيات...»[2].

ويتحدث عن الصداقة الجنسية بقوله: «وأعجب من هذا الوفاق بين البغاء والفلسفة اعتراف اليونان في غير حياء بالانحراف الجنسي، فلقد كان أكبر من ينافس العاهرات هم غلمان أثينا...».

ويصور لنا ديورانت انتشار الشذوذ الجنسي في بلاد اليونان، ويُنقل عن أفلاطون الحب الجنسي بين الذكران، وأنه أنبل وأكثر من الرجل للمرأة، وشيوع رذيلة عمل قوم لوط في اليونان بين أكبر الطبقات من حكام وفلاسفة وغيرهم كما هو الحال مع العاهرات.

---

(1) قصة الحضارة: (5 ص ص62- 66).

(2) المرجع السابق (7/103).

كما يقرر وجود الشذوذ نفسه بين النساء، ويحاول ول ديورانت أن يجد تفسيرًا لانتشار الدعارة واللواط، ويرجع ذلك إلى طبيعة المجتمع اليونانى [1].

9- أما (بلاد الرومان) فقد كان ازدياد الثراء وفساد الأخلاق من أكبر العوامل فى الانحلال الخُلقى، وانفصام رابطة الزواج، وظلت الدعارة منتشرة فى البلاد، ويعترف ديورانت صراحة بهذا الانحلال الخلقى بقوله:

«وكان الرومان – كما كان اليونان يتغاضون عن اتصال الرجال بالعاهرات، وكانت هذه المهنة ينظمها القانون، ويخضعها لإشرافه...ويتهم المؤرخون المسيحيون الرومان بأن الدعارة كانت تمارس داخل الهياكل الرومانية وبين مذابحها، وكان فى البلاد أيضًا رجال مخنثون، وكان اللواط محرمًا بحكم القانون، ولكنه كان مباحًا بحكم العادة، واسع الانتشار، لا يرى فيه مسبَّة ولا عار».

وكان ثمة صراع شديد بين الزواج وبين هذه المنافذ الجنسية المنافسة له..

وكان الزنا منتشرًا بين نساء الرومان فى أوسع نطاق، وكانت المرأة المتزوجة تسلم جسدها إلى عشاقها، ويعتقد الرومان أن المرأة المتزوجة التى تقنع بعاشقين تعد آية فى الإخلاص لزوجها، وأن الرجل الذى يغضب من صلات زوجته الغرامية رجل جلف، وللزوجين أن يتفقا على أن يفعل كل واحد منهما ما يحلو، وكان للمرأة فى ذلك العهد مثل مالها الآن من الحرية الكاملة إذا ما استثنينا من ذلك الحقوق السياسية الشكلية، وحرفية القوانين الميتة، لقد كان التشريع يبقى المرأة خاضعة أسيرة، ولكن العادة جعلتها طليقة!!

10- ولقد ورثت الحضارة الغربية هذه الأخلاق منذ عصر النهضة إلى يومنا هذا، ويقول ديورانت: "كانت هناك – بلا شك – مغامرات كثيرة من فتيان وفتيات قبل الزواج، ولولا هذا لما استطعنا أن نفسر وجود ذلك العدد الجم من الأبناء

(1) قصة الحضارة: (108/7).

غير الشرعيين فى كل بلد من بلاد إيطاليا فى عصر النهضة، ويُروى أنهم - أى الشباب - كانوا يقولون: إن الفسق ليس من الخطايا، وإن العفة من الأوامر التى عفا عليها الزمن، وإن عادة احتفاظ البنات بعذريتهن آخذة فى الزوال، وحتى مضاجعة المحارم كان لها من يحبذونها ويتباهون بها، وأما اللواط فقد كاد يصبح من مستلزمات بعث الحضارة اليونانية، وكان الكتاب الإنسانيون يكتبون عنه بما يشبه الاعتزاز العلمى.... وفى وسعنا أن نقول هذا القول نفسه عن الدعارة.. ويقدر التعداد الذى أُجرى فى البندقية عام 1509 عن العاهرات بـ(11.654) عاهرًا من بين سكانها البالغ عددهم نحو 300،000.. ولما ازداد الثراء وازدادت الرغبة فى التنعم؛ بدأ الأثرياء المنعمون يطالبون المحاظى اللاتى يتمتعن بقسط من التعليم والمفاتن الاجتماعية، وكما أن طائفة من الخليلات قد نشأن فى أثينا أيام "سفكليز" للوفاء بهذا المطلب، كذلك نشأت فى روما فى أواخر القرن الخامس عشر، وفى البندقية فى القرن السادس عشر طبقة من الخليلات المهذبات ينافسن أظرف السيدات فى ثيابهن وآدابهن وثقافتهن بل وفى تقاهن، وترددهن على الكنائس فى أيام الآحاد، وبينا كانت العاهرات العموميات يمارسن حرفتهن فى المواخير، كانت الخليلات الرومانيات السالفات الذكر يقمن فى بيوتهن..."[1].

ولعلنا نكمل صورة الحضارة الغربية حتى لا نرهق ديورانت معنا، فنقول:

لم تعرف الإنسانية فى تاريخها الطويل ما عرفته فى تاريخنا المعاصر من شهوانية لاحدود لها، طوعًا وكرهًا، حتى غدت تجارة البغاء من أربح أشكال التجارة، ومن أكبر مصادر الدخل للجريمة المنظمة؛ لدرجة أنها أغرت تجار السلاح والمخدرات إلى تغيير نشاطهم إلى تجارة البغاء، وقالت الشرطة الدولية -الإنتربول-: إن مهربى السلاح والمخدرات يهربون بشكل متزايد نساء من إفريقيا وأمريكا اللاتينية وآسيا

(1) قصة الحضارة: (21 ص ص89- 92).

لدول متقدمة حيث يتعرضن للخداع للعمل فى الدعارة[1].

وتجدر الإشارة إلى أن منظمة الهجرة الدولية كانت قد كشفت عن إدخال عصابات متخصصة لأربعة ملايين شخص فى سوق الدعارة كل سنة، وهى تجارة تدر عليهم سبعة بلايين دولار سنويًّا [2] وفى تايلاند وحدها تبلغ عائدات الدعارة ما بين 22.5 مليار دولار سنويًّا [3].

إن من يريد أن يتعرف على حجم الإباحية التى وصلت إليه الإنسانية المعاصرة، عليه أن يعلم الحقائق التالية:

الحقيقة الأولى: أصبح الجنس أسهل الطرق لتحقيق الثراء، خذ على سبيل المثال: «هيوج هافنر». هذا الصعلوك الأمريكى الذى طُرِدَ من المدرسة الابتدائية، وعمل فى مهن عديدة، كغسل الصحون وتنظيف المراحيض، والذى انتهى به المطاف إلى (لاس فيجاس)؛ حيث أندية القمار وأوكاره، وتمكن من تكوين مجموعة من الفتيات خاصة به لإغراء المترددين على المقامرة وتمضية الأوقات السعيدة، وأقبل العملاء على فتياته بشكل لم يكن يتوقعه، فتأكد أنه على وشك تحقيق أحلامه، وعرف أن الجنس هو طريق سهل لجمع ثروة كبيرة فى وقت قصير، وكانت فكرة صورة الحائط التى أعدها الناشر الأمريكى "هورانيو اليجرى" للممثلة الأمريكية "مارلين مونرو" وهى عارية تمامًا، الموضة الجديدة التى حققت نصف مليون دولار لصاحبها خلال خمسة عشر يومًا، وعلقت الفكرة فى رأسه، وطورها إلى عمل صحفى، يعتمد على الجنس والصور العارية، فكانت مجلة (البلاى بوى)- أى:

(1) موقع العربية نت الصفحة الأولى بتاريخ السبت26 ربيع الأول 1428هـ، إبريل 2007م السنة الرابعة، اليوم 53.

(2) مجلة الوعى الإسلامى، دولة الكويت العدد 493 بتاريخ 2006/12/23م.

(3) الأهرام العربى (العدد: 208) مقال بعنوان: (نقابة للعاهرات ومعاش عن التقاعد لإبراهيم عيسى 2001/3/17م.

الولد اللعبي-، وخلال ثلاثين عامًا من إصدار العدد الأول 1953م، وصل توزيع المجلة إلى تسعة ملايين نسخة من كل عدد، وارتفعت قيمة الصفحة الإعلانية إلى 250 ألف دولار، وخلال أعوام قليلة كانت مؤسسة (البلاى بوي) داخل أمريكا وخارجها محققة عشرات المليارات من الدولارات بعد دفع رسوم الضرائب [1].

والجدير بالذكر أن هذا الصهيونى يطلق على نفسه: (الأعزب).

وفى أمريكا بلغ عدد الشركات الجنسية التى تتخذ من المرأة بضاعة رائجة ما يقرب من مائتين وخمسين شركة جنسية.

وفى نيويورك يوجد أغرب مجمع فى العالم يضم أعضاء من مختلف الولايات المتحدة، يقدر عددهم بحوالى خمسة عشر مليونًا هم المنحرفون جنسيًّا [2].

الحقيقة الثانية: أصبح للجنس مصادره المتعددة، من ذلك: وسائل الإعلام المقروءة والمرئية، والمسموعة ، وأصبحت الاكتشافات الحديثة فى البلاد النامية على سبيل الخصوص وبالًا عليها، فأضحت شبكة المعلومات الدولية (الإنترنت) خرابًا ودمارًا بدلًا من أن تكون ثقافة وإعمارًا، واحتلت المواقع الإباحية الصادرة بأرقامها القياسية التى تجاوزت الملايين، وأرتادها - أيضًا - الملايين من الشباب والفتيات المتعطشين؛ حتى غدت الرذيلة شيئًا مألوفًا، بل تجاوز الأمر إلى المتزوجين حتى أصبحت العلاقة الزوجية فارغة من معناها، فالخيانة الزوجية شيء طبيعى، ومما نقلته (الشرق الأوسط) أن شابًّا إيطاليًّا ذكر أنه خان زوجته (480) مرة خلال ستة أشهر وهى تعرف ذلك، ويريد تسجيل اسمه وتجربته فى موسوعة الأرقام القياسية [3]!!!.

---

(1) ملوك المال والجنس فى العالم: إعداد إبراهيم العربى (الإسكندرية: المركز العربى للنشر والتوزيع) ص ص(24- 28).

(2) راجع: تعدد الزوجات لا تعدد العشيقات، د/ عبد الحليم عويس، والأستاذ / مصطفى مشهور، ص ص 37- 38.

(3) الشرق الأوسط العدد رقم 367 فى شوال سنة 1399هـ.

كما أن الموضة والأزياء الخليعة والغزو الفكرى وإباحة الجنس، ومعوقات الزواج، والخلافات الزوجية، وغياب العقوبات الرادعة، وانشغال الزوجة عن تربية الأولاد، وكثرة المطلقات والأرامل والعوانس، كل هذه الأشياء تُعد من روافد الجنس ومصادر الزنا ومنابع الفساد، ويكفى أن نتذكر أن منظمة الأمم المتحدة أعلنت عن مرض واحد فقط من الأمراض الجنسية وهو الإيدز، فذكرت عن وفاة 25 مليون شخص منذ اكتشاف المرض فى 1981م، وأن هناك ثمانية آلاف حالة وفاة كل يوم، وأن هناك أربعين مليون مصاب، وأنها تحتاج إلى 23 مليار دولار سنويًا لمحاربة الإيدز!

الحقيقة الثالثة: أصبحت الدعارة نشاطًا عالميًا رسميًا، وممارسة البغاء تحولت - فى دول عديدة - إلى مهنة معترف بها، لها قوانين وأنظمة، وتديرها شبكة ضخمة، لكن الجديد أن دولًا عديدة باتت تلجأ إلى تقنين الدعارة بهدف محاربة شبح البطالة والفقر، فبدلًا من بقاء النساء فى البيوت بلا عمل، فلماذا لا يخرجن ليبعن أجسادهن لكل الرجال؟![1].

والأخطر فى هذا المجال مؤتمرات السكان التى تحاول عولمة الجنس وإصدار القوانين الدولية التى تحمى الدعارة من خلال المصطلحات التالية:

- الجندر (Gender) شعور الإنسان بنفسه: ذكرًا، أو أنثى حيث لا مانع من عملية التحويل التى يرغب فيها الشخص، واختيار النوع الذى يريده.
- حرية الحياة غير النمطية ومعناها: عدم وضع أى قيد على حرية التوجه الجنسى خارج إطار الأسرة والزواج التقليدى النمطى المعروف، ويشمل هذا:

- تقنين الشذوذ، ومعناه: إعطاء الشاذ -جنسيًا- الحق القانونى فى ممارسة ما يريد، ومن الشذوذ: عمل قوم لوط، والسحاق- أى: إتيان الذكران بعضهم لبعض،

(1) الأهرام العربى: مرجع سابق.

وإتيان النساء بعضهن لبعض.

- الإجهاض الآمن أى: إعطاء المرأة الحق القانونى غير المجرَّم فى إسقاط الجنين بما لايعرضها للخطر.

- حرية الجسد الأنثوى؛ فالمرأة حرة فى جسدها تفعل به ما تشاء، وليس لأحد - أيًّا كان- سلطان على حرية المرأة.

- ما يطالعه الإنسان خلال شبكة المعلومات الدولية فى هذا الشأن يقشعر منه البدن، فلم تعد هناك أسرة على المعنى المعروف إلا فى أضيق الحدود، ونحن نظلم الحيوانات حين نشبه بها أعمال المنحرفين الذين تُوحى إليهم شياطينهم أنهم بتلك الأعمال متحضرون!!

لعلنا بهذا العرض السريع تأكد لدينا ما يلى:-

1- أن العرب لم يكونوا أكثر شهوانية من غيرهم، لا فى القديم ولا فى الحديث، فقد ظهر أن غيرهم شاعت فيهم الرذائل، وعمهم الانحلال الأخلاقى بدرجة لم يصل إليها العرب؛ حتى يكون تعدد الزوجات مبررًا لشهواتهم.

2- العجيب أن أغلب الذين مارسوا البغاء عند العرب لم يكونوا من الحرائر بل كانوا من الإماء، وقد استنكرت هند بنت عتبة بن ربيعة ذلك حين بايعت رسول الله ﷺ فقال: «أُبَايِعُكِ عَلَى أَنْ لَا تُشْرِكِي بِاللهِ شَيْئًا، وَلَا تَسْرِقِي وَلَا تَزْنِي» قالت: أَوَ تَزْنِي الْحُرَّةُ؟؟! [1].

بل لقد عمل الإسلام على القضاء على هذا النوع أيضًا وهو بغاء الإماء، قال تعالى: ﴿وَلَا تُكْرِهُوا۟ فَتَيَـٰتِكُمْ عَلَى ٱلْبِغَآءِ إِنْ أَرَدْنَ تَحَصُّنًا﴾[النور:33] .

قال ابن كثير: «كان أهل الجاهلية إذا كان لأحدهم أمة، أرسلها تزنى وجعل عليها ضريبة يأخذها فى كل وقت، فلما جاء الإسلام، نهى الله المؤمنين عن ذلك»[2].

(1) رواه أبو يعلى فى مسنده فى مسند عائشة (8/ 194) رقم الحديث (4754).

(2) تفسير ابن كثير (3 ص382).

وجاء الإسلام حربًا على كل رذيلة، قال تعالى: ﴿وَلَا تَقْرَبُوا الزِّنَىٰ إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً وَسَاءَ سَبِيلًا ﴿٣٢﴾﴾ [الإسراء:32]، ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُحِبُّونَ أَن تَشِيعَ الْفَاحِشَةُ فِي الَّذِينَ آمَنُوا لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ ۚ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿١٩﴾﴾ [النور:19]، ﴿قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ﴾ [الأعراف:33].

3- أيهما أحفظ لكرامة المرأة، تعدد الزواج بموازين الشرع، أم شيوع الفاحشة، وقبول الخيانة الزوجية؟!

المجتمعات الغربية أمرها عجيب، تقبل الباطل وترفض الحق، فالمجتمع الغربى الذى يرفض تعدد الزوجات الشرعيات يقبل ويعترف بالعلاقة الآثمة – غير المشروعة– التى يقيمها الزوج مع واحدة، أو أكثر من الخليلات والعشيقات، بينما لا يعترف ولا يقبل أن تكون هناك زوجة أخرى... وما ذلك إلا لأن نوازع الدين والإيمان قد تبخرت من كثير من العقول والقلوب، فأصبحت فريسة لحساب الأمور بالمكسب والخسارة، وهذا هو أسوأ الموازين عن تقدير القيم[1].

4- إن تعدد الزوجات ليس من ابتداع محمد، وإنما كان أمرًا معروفًا قبل الإسلام، ولايزال مألوفًا لدى غير المسلمين ولم يحل الإسلام للرجل أن يتزوج ما شاء من النساء بل قيد ذلك بشروط محددة كما سيظهر لاحقًا.

5- ليس تعدد الزوجات شكلًا من أشكال الرجعية والتخلف، يُتهم به الإسلام، بل هو نظام حضارى، لم تتخلف عنه حضارة إنسانية قديمًا وحديثًا.

* * *

(1) رسائل إلى عقل الغرب وضميره أ.د عبد الصبور مرزوق ط 1 القاهرة: الدار المصرية اللبنانية 1427هـ/ 2006 م بتصرف.

الشبهة الثانية
تعدد الزوجات أمر دنيوى، لا دينى

تعدد الزوجات أمر دنيوى لا دينى، ومن ثمَّ فإن تعدد الزوجات يعد أمرًا من قبيل الأمور الدنيوية التى جاء فيها الحديث. «أَنْتُمْ أَعْلَمُ بِشُؤُونِ دُنْيَاكُمْ».

لذا يرجع العلم فيها إلى الأشخاص، وهذا بعض ما يزعمه المحرِّمون لتعدد الزوجات[1] وقد تجاوز البعض حدوده، فزعم أن تعدد الزوجات زنا، ورأى البعض أنه يجوز للحاكم أن يمنع التعدد بشرط أو بغير شرط على حسب ما يراه موافقًا لمصلحة الأمة [2].

الرد على هذه الشبهة:

أولًا: فقه الحديث: «أنتم أعلم بشؤون دنياكم».

روى الإمام مسلم فى صحيحه بسنده عَنْ مُوسَى بْنِ طَلْحَةَ عَنْ أَبِيهِ قَالَ:

مَرَرْتُ مَعَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ بِقَوْمٍ عَلَى رُؤوسِ النَّخْلِ فَقَالَ: «مَا يَصْنَعُ هَؤُلَاءِ» فَقَالُوا: يُلَقِّحُونَهُ، يَجْعَلُونَ الذَّكَرَ فِى الْأُنْثَى، فَيلقَحُ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «مَا أَظُنُّ يُغْنِى ذَلِكَ شَيْئًا» قَالَ: فَأُخْبِرُوا بِذَلِكَ فَتَرَكُوهُ فَأُخْبِرَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ بِذَلِكَ فَقَالَ: «إِنْ كَانَ يَنْفَعُهُمْ ذَلِكَ فَلْيَصْنَعُوهُ؛ فَإِنِّى إِنَّمَا ظَنَنْتُ ظَنًّا فَلَا تُؤَاخِذُونِى بِالظَّنِّ، وَلَكِنْ

(1) راجع: موسوعة: الأسرة تحت رعاية الإسلام: الشيخ عطية صقر رحمه الله. (مصر: الدار المصرية للكتاب (1411هـ/ 1990م).

(2) تحرير المرأة: قاسم أمين سلسلة المواجهة (الهيئة المصرية العامة للكتاب (1993) ص122.

إِذَا حَدَّثْتُكُمْ عَنِ اللّـهِ شَيْئًا فَخُذُوا بِهِ، فَإِنِّى لَنْ أَكْذِبَ عَلَى اللَّـهِ عَزَّ وَجَلَّ».

وفى رواية عن أنس: «أَنْتُمْ أَعْلَمُ بِأَمْرِ دُنْيَاكُمْ»

وفى رواية رافع بن خديج فقال: «إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ إِذَا أَمَرْتُكُمْ بِشَيْءٍ مِنْ دِينِكُمْ فَخُذُوا بِهِ، وَإِذَا أَمَرْتُكُمْ بِشَيْءٍ مِنْ رَأْى فَإِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ»[1].

دل الحديث بطرقه ورواياته فى كتب السنة على ما يلى:

1- إن تأبير النخل وتلقيحه من أمور المعاش التى يرجع فيها إلى الخبرة وأهل الاختصاص فى الزراعات والنباتات، وما قاله الرسول الكريم فى هذا الشأن رأى وظن، ولم يكن خبرًا عن الله، وتشريعًا منه سبحانه وتعالى، فلا يؤاخذ الرسول بالظن فى ذلك.

2- – ما قاله الرسول وفعله على جهة التشريع فيجب العمل به، ولو كان من اجتهاده ﷺ، وليس تأبير النخل من هذا النوع، فلم ينزل فيه قرآن، ولم يفعل فيه رسول الله شيئًا يزعم أحد أنه وحى.

3- إن تعميم قوله ﷺ: « أَنْتُمْ أَعْلَمُ بِأَمْرِ دُنْيَاكُمْ» تعميم باطل إذا فهم منه استبعاد التشريع الإسلامى وفصله عن شؤون الحياة، فهذا لا يخطر على بال من عنده فقه فى دين الله تعالى.

فالقرآن الكريم قد فصلت آياته المعاملات، وأحكام الحلال والحرام والأحوال الشخصية من زواج وطلاق وظهار ولعان وأحكام القصاص والديات والمواريث.

فهل يقول عاقل: إن هذه الأحكام وغيرها التى نصت على آيات القرآن وبينتها سنة سيدنا رسول الله ﷺ ليست من الدين؟ وإنما تتعلق بأمور الدنيا؟ ويترك للبشر

(1) مسلم كتاب الفضائل باب وجوب امتثال ما قاله الله شرعًا دون ما ذكره ﷺ من معايش الدنيا على سبيل الرأى، الحديث رقم (2361، 2362، 2363). وطرق الحديث عند أحمد فى مسنده حديث رقم (1395) (162/1)، صحيح ابن حبان حديث 23 (202/1) ومسند أبى يعلى حديث رقم 639 (12/2) والمعجم الأوسط حديث رقم 1030 (306/1) والمعجم الكبير 4424(280/4).

معرفتها؟ وبيان ما ينفعهم وما يضرهم؟

إن فقه الحديث يدلنا على أن الاستدلال بقوله ﷺ: «أَنْتُمْ أَعْلَمُ بِأَمْرِ دُنْيَاكُمْ» فى غير سياقه- أعنى فى غير أمور المعايش مما لا علاقة له بالتشريع- استدلال فى غير موضعه.

4- إن علاقة الدين بالدنيا علاقة وثيقة، وأحكام الشريعة صدرت لتحقيق المصلحة، والقواعد الشرعية لصالح الإنسانية، فلا نتصور بحال من الأحوال فصل الدين عن الدنيا، لكن المقصود أن الإسلام احترم العادات، ومن قواعده الشرعية: (العادة مُحكَّمة)، كما أنه احترم التخصصات، ومن أصوله القرآنية ﴿وَقُل رَّبِّ زِدْنِي عِلْمًا ﴾ [طه: 114]، ﴿ فَسْـَٔلُوٓاْ أَهْلَ ٱلذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴾ [الأنبياء: 7].

ومن ثمّ.. فإن الحديث فى ضوء هذا الفهم لا يعنى أن أمور الدنيا معزولة عن أمور الدين.

5- عناية الصحابة الأطهار بمتابعة سيد الأبرار، فقد فهم الأنصار - وهم أهل زراعة وتخصص - أن اجتهاد الرسول فى أمر يعلمونه، إنما هو من قبيل التشريع، فلم يتأخروا فى تنفيذه، حتى فصّل لهم الرسول المسألة فى ذلك، وبيّن أن الأمر لا علاقة له بالإخبار عن الله وإنما هو اجتهاد بشرى.

وهذا يعطينا دلالة على ضرورة السمع والطاعة لكل حكم تشريعى ثابت فى الكتاب والسنة.

قال تعالى: ﴿ إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ أَن يَقُولُواْ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا ۚ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿٥١﴾ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَيَخْشَ ٱللَّهَ وَيَتَّقْهِ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَآئِزُونَ ﴿٥٢﴾ ﴾ [النور الآيتان: 51-52].

ثانيًا: تعدد الزوجات فى التشريع الإسلامى:

إن تعدد الزوجات، ورابطة الزواج ليست كتأبير النخل، بل هى حكم دينى، وأمر تشريعى ورد فى القرآن والسنة النبوية والفقه الإسلامى على النحو التالى:

1- القرآن الكريم:-

قال تعالى: ﴿فَٱنكِحُواْ مَا طَابَ لَكُم مِّنَ ٱلنِّسَآءِ مَثۡنَىٰ وَثُلَٰثَ وَرُبَٰعَ﴾ [النساء:3]

قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ قُل لِّأَزۡوَٰجِكَ إِن كُنتُنَّ تُرِدۡنَ ٱلۡحَيَوٰةَ ٱلدُّنۡيَا وَزِينَتَهَا﴾ [الأحزاب:28].

فالآيتان تقرران بوضوح: مشروعية التعدد وتطبيقه، وقد شمل هذا عموم المسلمين وخاتم النبيين، والحكم عام لا يخضع لهوىٰ أحد، ولا يزال المسلمون منذ نزول القرآن وصدر الإسلام يرون تعدد الزوجات أمر دينيًا معروفًا مستمدًا حكمه من القرآن الكريم.

2- السنة النبوية:

عن سعيد بن جبير قال: قال لى ابن عباس: «هل تزوجت؟ قلت: لا، قال: تزوج، فإن خير هذه الأمة أكثرها نساء»[1].

وعن أبى هريرة أن رسول الله ﷺ نهى عن أربع نسوة: أن يجمع بين المرأة وعمتها، والمرأة وخالتها[2].

وعن أبى هريرة عن النبى ﷺ قال: «**مَنْ كَانَتْ لَهُ امْرَأَتَانِ فَمَالَ إِلَى إِحْدَاهُمَا، جَاءَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَشِقُّهُ مَائِلٌ**»[3].

(1) البخارى كتاب النكاح، باب كثرة النساء، حديث رقم (4782).
(2) مسلم كتاب النكاح، باب: تحريم الجمع بين المرأة وعمتها وخالتها فى النكاح، حديث رقم (1408).
(3) أبو داود كتاب النكاح باب فى القسم بين النساء حديث رقم (2133)، وقال الشيخ الألبانى: صحيح.

وعن أنس بن مالك قال: لو شئت أن أقول: قال رسول الله ﷺ، ولكنه قال، «**السُّنَّةُ إِذَا تَزَوَّجَ الرَّجُلُ الْبِكْرَ عَلَى امْرَأَتِهِ أَقَامَ عِنْدَهَا سَبْعًا، وَإِذَا تَزَوَّجَ الثَّيِّبَ عَلَى امْرَأَتِهِ أَقَامَ عِنْدَهَا ثَلاثًا**»[1].

والمتأمل فى جميع كتب السنة يجد أحكامًا مفصلة عن تعدد الزوجات فى كتاب النكاح، فهل يُعد هذا أمرًا لا علاقة له بالدين؟؟

3-الفقه الإسلامى:

عالجت كتب الفقه الإسلامى مسألة تعدد الزوجات بكل تفاصيلها، بما لا يمكن الادعاء معه بأن هذه المسألة من الأمور الدنيوية، بل هى من صميم الأحكام التشريعية الدينية المستمدة من القرآن والسنة.

فالباحث فى كتاب النكاح فى كتب الفقه الخاصة بالمذاهب، أو العامة يجد تفصيلًا فى مسألة التعدد، فكتاب المبسوط "للسرخسى" فى الفقه الحنفى فى المجلد الرابع (صفحة 88) قد عقد بابًا فى النكاح فى العقود المتفرقة، وقد بدأه بأنه (لا يحل للرجل أن يجمع بين أكثر من أربع نسوة بالنكاح...).

كما ذكر «الكاسانى» فى بدائع الصنائع المجلد الثانى ص538 الجمع بين النساء ما ملخصه: «وجملة الكلام فى الجمع أن الجمع فى الأصل نوعان: جمع بين ذوات الأرحام، وجمع بين الأجنبيات غير ذوات الأرحام».

أما الجمع بين ذوات الأرحام فنوعان أيضًا: جمع فى النكاح، وجمع فى الوطء ودواعيه بملك اليمين.

أما الجمع بين ذوات الأرحام فى النكاح فنقول: لا خلاف فى أن الجمع بين الأختين فى النكاح حرام لقوله تعالى: ﴿وَأَن تَجْمَعُواْ بَيْنَ ٱلْأُخْتَيْنِ﴾[النساء:23]

(1) الترمذى كتاب النكاح باب القسمة للبكر والثيب، حديث رقم (1139).

معطوفًا على قوله عز وجل: ﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ أُمَّهَٰتُكُمْ﴾.

وأما الجمع فى الوطء بملك اليمين فلا يجوز عند عامة الصحابة مثل عمر وعلى وعبد الله ابن مسعود، وعبد الله بن عمر ن، فلا يجوز الجمع بين الأختين – الإماء والحرائر – فى الوطء، ولا يجوز فى الدواعى من اللمس والتقبيل...

وأما الجمع بين الأجنبيات فنوعان: جمع فى النكاح، وجمع فى الوطء ودواعيه بملك اليمين.

أما الجمع فى النكاح فنقول: لا يجوز للحر أن يتزوج أكثر من أربع زوجات من الحرائر والإماء عند عامة العلماء.

وأما الجمع فى الوطء ودواعيه بملك اليمين فجائز وإن كثرت الجواري؛ لقوله تعالى: ﴿فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تَعْدِلُوا فَوَاحِدَةً أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُمْ﴾ [النساء:3].

وفى الفقه المالكى نجد فى المدونة الكبرى (المجلد الثانى ص189) فى القسم بين الزوجات، وقد اشتملت المدونة على ثلاثة كتب فى النكاح، وفى بداية المجتهد فى الفقه المالكى لابن رشد (المجلد الأول ص725) استعراض لكل الآراء فى مسألة التعدد.

قال ابن رشد:

(واتفق المسلمون على جواز نكاح أربعة من النساء معًا وذلك للأحرار من الرجال، واختلفوا فى موضعين فى العبيد، وفيما فوق الأربع.

وفى الفقه الشافعى: تناول الإمام الشافعى فى كتابه (الأم) (المجلد الخامس ص3) ما يحرم الجمع بينه، ومن يحل الجمع بينه.

بما يؤكد أن المسألة تتناولها الأحكام الشرعية وتخضع للحرام والحلال، وليس للأهواء الشخصية، أو الشؤون الدنيوية.

أما الفقه الحنبلي: فقد تناول «ابن قدامة» فى كتابه المغنى (المجلد السابع ص 436) مسائل التعدد ومنها: (ليس للحر أن يجمع بين أكثر من أربع زوجات).

وخلاصة القول:

إن تعدد الزوجات أمر مباح فى التشريع الإسلامى، جاءت أحكامه فى القرآن الكريم وفى السنة النبوية. وقد تناول الفقهاء هذا الموضوع بالتفصيل فى كتاب النكاح، حيث لا يخرج التعدد عن كتاب النكاح، وما اشتمل عليه من أحكام شرعية تتعلق بالحياة الزوجية، سواء لزوجة واحدة أم أكثر من زوجة.

ومن العبث أن نقول: إن تعدد الزوجات أمر دنيوى لا دينى، ومن اللافت للنظر: أن العبث بالقوانين يمتد إلى جوانب متعددة، لا سيما فيما يتعلق بالجريمة والعقوبة إلا فيما يتعلق بالأحوال الشخصية، حيث يحرص رجال التشريع على البعد عن المساس بالأحكام الشرعية المستمدة من القرآن والسنة، ومجرد الاقتراب من تلك الأحكام ينذر بعواقب وخيمة على المستوى الشعبى، ولو كان الأمر متعلقًا بالدنيا وما يراه البشر صالحًا لهم فقط لامتدت يد العبث فى المجتمع الإسلامى إلى الأحوال الشخصية.

وحين حاولت بعض الدول رسميًّا منع هذا العبث واستصدرت قانونًا مخالفًا للشريعة الإسلامية لم يلق هذا الاحترام أو القبول لدى الشعوب المسلمة، وبرزت مشاكل كثيرة، ومفاسد عديدة.

وقد استعرض الإمام «محمد أبو زهرة» التدخلات الرسمية فى قوانين الأحوال الشخصية فى بعض البلاد الإسلامية، ومنها تونس حيث نصت المادة 18 من القانون التونسى (تعدد الزوجات ممنوع، والتزوج بأكثر من واحدة يستوجب عقابًا بالسجن مدة عام، وغرامة قدرها 24000 (أربعة وعشرون ألف فرنك) أو بإحدى العقوبتين فقط).

فالتعدد جريمة تستوجب العقاب، وذلك ما لم يعرف فى الإسلام.. وإن الضرر أشد على المرأة؛ لأن الرجل يستطيع أن يتزوج امرأة أخرى بشهادة اثنين، ويكتمان ذلك ويعيشان كأنهما عشيقان وهما زوجان.

وقانون فرنسا الذى اقتبس منه ذلك يبيح العشق، ولا يبيح الزواج[1].

وما ذكره الإمام «أبو زهرة» أكده الإمام "عبد الحليم محمود" فى افتتاحية مجلة الأزهر فى شعبان 1398هـ / يوليو 1978م، حيث أثير قانون الأحوال الشخصية فى مصر. ومما قاله الإمام الراحل الشيخ عبد الحليم محمود: (إن التعدد مباح فى الإسلام، فعله الخلفاء الراشدون، وفعله الصحابة كبارهم وصغارهم، وفعله التابعون وتابعو التابعين قرنًا بعد قرن، والقرآن الكريم ينص عليه، والأحاديث الشريفة تدل عليه، ثم إن الوضع الاجتماعى يوجبه، وربما يدهش بعض الناس لقولنا: إن الوضع الاجتماعى (يوجبه) ونحن فى ذلك نورد أمورًا:

1- فى أحد الأقطار (يقصد تونس) منع زعيم القطر "بورقيبة" تعدد الزوجات: وحصلت حادثة أمام سمعه وبصره، هذه الحادثة تتلخص فى أن شخصًا من الأشخاص متزوج، وعنده أولاد من زوجته، ثم أصبحت زوجته هذه فى وضع غير صالح من الناحية الجنسية، فكان هو بين أمرين:

إما أن يزنى، وإما أن يتزوج.. ولكن التعدد ممنوع، فماذا يصنع؟

إن امرأته الأولى ليست مسئولة عما حدث لها، هذا قضاء الله بالنسبة لها، فما ذنبها لتطلق؟ ولِمَ يطلقها؟

إنها لم تسئ إليه، لم يطلق، وإنما ذهب وعقد عقدًا شرعيًّا على امرأة، وتزوجها بحسب الشرع، وأسكنها فى مسكن، وكان يذهب إليها ويبيت عندها.. وبُلِّغ عنه

(1) تنظيم الأسرة: ص ص50، 51.

أنه تزوج امرأة أخرى والقانون لا يتساهل، وذهبت الشرطة وضبطوه متلبسًا بالجريمة، جريمة الزواج بامرأة أخرى، وأُتِيِ به للتحقيق وقالوا له: هل تزوجت امرأة أخرى؟ فقال.. كلا..

فقيل له: ولكنك كنت عندها.

قال: نعم.

وتنفق عليها؟ قال: نعم.

قالوا: وقد استأجرت لها هذا المسكن؟

قال: نعم.

قالوا: وتبيت عندها؟

قال: وأبيت عندها.

قالوا: ماذا تكون إذًا؟

قال: إنها عشيقة.

فقالوا له: اذهب لا ملام عليك، لا لوم عليك.. !!!

حرَّموها زوجة بالفعل والتحقيق، تحقيق البوليس، وأباحوها عشيقة وخدينة.

2- ويأتى أيضًا فيما يتعلق بالتعدد أن "أتيين دينيه" مستشرق فرنسى كان قد ذهب إلى الجزائر، فى عهد الفرنسيين وهو فرنسى، وأقام فى الجزائر فى بلدة اسمها (بوسعادة) استراح إلى الجو، واستراح إلى الناس واستراح إلى الخلق، وكلُّها أغْرته: الجو، الطبيعة، الصحراء، الناس: كلها أغرته بأن يقيم فى الجزائر فأقام.

أقام فى عهدين: عهد كان فيه عدم التعدد، أو الدعوة إلى عدم التعدد، أو الإقلال من التعدد.

فلاحظ ثلاث ملاحظات، كتبها باللغة الفرنسية فى أحد الكتب.

كتب يقول: حينما منع التعدد والطلاق، وجدت ظواهر لم تكن موجودة، أيام إباحة التعدد والطلاق.

ما هذه الظواهر التى وجدت عندما منع التعدد؟

أولاً: كثرة العوانس، هذا أمر.

الأمر الثانى: كثرة اللقطاء.

الأمر الثالث: كثرة الأمراض السرية.

هذه المسائل الثلاث، حدثت بعد أن منع التعدد، وبعد أن منع الطلاق، وليس معنى إباحة التعدد أنه مفروض، وليس معنى ذلك أنه لابد من التعدد.

كلا، وأنتم تعلمون أنه مع إباحة التعدد الآن فى القاهرة فإنه لا يزيد عن نصف فى الألف، إن هذا النصف فى الألف من الناس فقط هو الذى يعدد الزوجات، إنه يعدد الزوجات إلى اثنتين...

أما الثلاث والأربع فلا وجود لهما...

وهكذا الأمر، نعنى: يكاد يكون التعدد - مع إباحته- معدومًا.

ولكن من الوجهة النظرية وفى حالات الندرة، وفى حالات الحاجة لو فرضنا أن شخصًا من الأشخاص؛ إما أن يتزوج، وإما أن ينحرف يباح له الزواج.

هذا رأى الكاتب الفرنسى الذى يقول، ويشاهد، بالتعدد وبالتجربة ما حدث، وماكان..

ثم ماذا: ألم يتزوج الخلفاء الأربعة كل منهم بأكثر من واحدة؟ والحسن؟ والحسين؟ وعبد الرحمن بن عوف رضى الله عنهم؟ وكلهم: مثنى وثلاث ورباع؟!

إن من المقرر الثابت أنه لايجوز لأحد كائنًا من كان أن يتدخل فى حكم تشريعى ثابت بالكتاب والسنة، ومعلوم أنه لا طاعة لمخلوق فى معصية الخالق، وبالتالى لايجوز للحاكم أن يمنع التعدد.

الشبهة الثالثة
نفى العدل بين الزوجات دليل على امتناع التعدد

مما ذكره البعض: (أن نفى العدل بين الزوجات دليل على امتناع التعدد).

يقول "قاسم أمين" فى كتابه: (تحرير المرأة)[1]:

"والذى يطيل البحث فى النصوص القرآنية التى وردت فى تعدد الزوجات يجد أنها تضم إباحة وحظرًا فى آن .

قال تعالى: ﴿وَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تُقْسِطُوا فِي الْيَتَامَىٰ فَانكِحُوا مَا طَابَ لَكُم مِّنَ النِّسَاءِ مَثْنَىٰ وَثُلَاثَ وَرُبَاعَ ۖ فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تَعْدِلُوا فَوَاحِدَةً أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ ۚ ذَٰلِكَ أَدْنَىٰ أَلَّا تَعُولُوا ﴿٣﴾﴾ [النساء:3].

قال تعالى: ﴿وَلَن تَسْتَطِيعُوا أَن تَعْدِلُوا بَيْنَ النِّسَاءِ وَلَوْ حَرَصْتُمْ ۖ فَلَا تَمِيلُوا كُلَّ الْمَيْلِ فَتَذَرُوهَا كَالْمُعَلَّقَةِ ۚ وَإِن تُصْلِحُوا وَتَتَّقُوا فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿١٢٩﴾﴾ [النساء:129].

ومن هذه الآيات يتضح أن الشارع علق وجوب الاكتفاء بواحدة على مجرد الخوف من عدم العدل، ثم صرح بأن العدل غير مستطاع...".

الرد على هذه الشبهة:

المتأمل فى كلام قاسم أمين يجد أنه يخدم ما يردده غير المسلمين من وقوع تناقض فى القرآن الكريم.

---

(1) ص 121.

والواقع أن هذه الشبهة متهاوية من أصولها على النحو التالى:

1-قرر قاسم أمين نفسه إباحة التعدد حيث قال بعد سطور: «ولو أن ناظرًا فى الآيتين أخذ منهما الحكم بتحريم الجمع بين الزوجات؛ لما كان حكمه هذا بعيدًا عن معناها. لولا أن السنة والعمل جاءا بما يقتضى الإباحة فى الجملة»، ونحن نسأل بدورنا:

ألا تكفى السنة والعمل فى بيان المراد من حكم الله تعالى؟؟

قال تعالى: ﴿ وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ۝ ﴾ [النحل:44].

﴿وَأَطِيعُوا۟ ٱلرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ۝ ﴾[النور:56].

وفى الحديث الصحيح: «فَمَنْ رَغِبَ عَنْ سُنَّتِى فَلَيْسَ مِنِّى»[1].

ومعنى الحديث: أن من مال عن طريقتى وأعرض عنها فليس بمسلم؛ إن كان ميله عنها كرهًا لها، أو عن عدم اعتقاد بها.

2- ماذا قال علماء التفسير فى تلك الآيات المتعلقة بتعدد الزوجات؟!

نحن ننقل لك ما قاله عالم فى هذا الشأن فى القديم والحديث يقول الحافظ ابن كثير:

«لن تستطيعوا أيها الناس أن تساووا بين النساء من جميع الوجوه، فإنه وإن وقع القسْم الصورى: ليلة وليلة، فلا بد من التفاوت فى المحبة والشهوة والجماع، كما قاله ابن عباس، وعُبَيْدة السَّلْمانى، ومجاهد، والحسن البصرى، والضحاك بن مزاحم[2]».

(1) أخرجه البخارى فى كتاب النكاح، باب2 الترغيب فى النكاح الحديث رقم (4776) ومسلم فى كتاب النكاح باب استحباب النكاح لمن تاقت نفسه إليه رقم (1401).

(2) تفسير ابن كثير(1ص ص563 ، 564).

أما صاحب تفسير المنار فيقول[1]:

«هذه فتوى أخرى غير الفتاوى المبينة فى الآيتين قبلها، والمستفتون عنها هم الذين كان عندهم زوجتان أو أكثر من قبل نزول ﴿ فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تَعْدِلُوا فَوَاحِدَةً﴾ [النساء:3]، ومثلهم من عدَّد بعد ذلك ناويًا العدد، حريصًا عليه، ثم ظهر له وعورة مسلكه واشتباه أعلامه، والتحديد بين ما يملكه، وما لا يملكه اختياره منه، فالويع من هؤلاء يحاول أن يعدل بين امرأتيه حتى فى إقبال النفس والبشاشة والأنس وسائر الأعمال والأقوال، فيرى أنه يتعذر عليه ذلك؛ لأن الباعث على الكثير منه: الوجدان النفسى، والميل القلبى، وهو مما لا يملكه المرء، ولا يحيط به اختياره، ولا يملك آثاره الطبيعية، ولوازمه الفطرية، فخفف الله برحمته على هؤلاء المتقين الورعين، وبين لهم أن العدل الكامل بين النساء غير مستطاع، ولايتعلق به التكليف» كأنه يقول:

مهما حرصتم على أن تجعلوا المرأتين كالغرارتين المتساويتين فى الوزن - وهو حقيقة معنى العدل- فلن تستطيعوا ذلك بحرصكم عليه، ولو قدرتم عليه، لما قدرتم على إرضائها به، وإذا كان الأمر كذلك فى الواقع ﴿فَلَا تَمِيلُوا كُلَّ الْمَيْلِ﴾ [النساء:129] إلى المحبوبة منهن بالطبع، المالكة لما لا تملكه الأخرى من القلب، فتعرضوا بذلك عن الأخرى ﴿فَتَذَرُوهَا كَالْمُعَلَّقَةِ﴾ [النساء:129] كأنها غير متزوجة وغير مطلقة فإن الذى يغفر لكم من الميل، وما يترتب عليه من العمل بالطبع، هو ما لا يدخل فى الاختيار، ولا يكون من تعمد التقصير أو الإهمال، فعليكم أن تقوموا بحقوق الزوجية الاختيارية كلها ﴿وَإِن تُصْلِحُوا وَتَتَّقُوا فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿١٢٩﴾﴾ [النساء:129] أى وإن تصلحوا فى معاملة النساء

(1) المنار للشيخ محمد رشيد رضا (مصر: الهيئة المصرية العامة للكتاب، 1973) المجلد الثالث ص ص(365،366).

وتتقوا ظلمهن وتفضيل بعضهن على بعض فى المعاملات الاختيارية كالقسم والنفقة؛ فإن الله يغفر لكم ما دون ذلك مما لا ينضبط بالاختيار كالحب ولوازمه الطبيعية من زيادة الإقبال وغير ذلك؛ لأن شأنه سبحانه المغفرة والرحمة لمستحقهما.

يظن بعض الميالين إلى منع تعدد الزوجات، أنه يمكن من هذه الآية، وآية ﴿فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تَعْدِلُوا فَوَاحِدَةً﴾ [النساء:3] أن التعدد غير جائز؛ لأن من خاف عدم العدل لا يجوز له أن يزيد على الواحدة، وقد أخبر الله تعالى أن العدل غير مستطاع، وخبره حق، لا يمكن لأحد بعده أن يعتقد أنه يمكنه العدل بين النساء، فعدم العدل صار أمرًا يقينيًا، ويكفى فى تحريم التعدد أن يخاف عدم العدل بأن يظنه ظنًا، فكيف إذا اعتقده يقينيًا؟

كان يكون هذا الدليل صحيحًا؛ لو قال تعالى: ﴿وَلَن تَسْتَطِيعُوا أَن تَعْدِلُوا بَيْنَ النِّسَاءِ وَلَوْ حَرَصْتُمْ﴾ [النساء:129] ولم يزد على ذلك.

ولكنه لما قال: ﴿فَلَا تَمِيلُوا كُلَّ الْمَيْلِ﴾ [النساء:129] إلخ، علم أن المراد بغير المستطاع من العدل: هو العدل الكامل الذى يحرص عليه أهل الدين والورع كما بيناه فى تفسير الآية، وهو ظاهر من قوله: ﴿وَلَوْ حَرَصْتُمْ﴾ [النساء:129].

فإن العدل من المعانى الدقيقة التى يشتبه الحد الأوسط منها بما يقاربه من طرفى الإفراط والتفريط، ولا يسهل الوقوف على حده، والإحاطة بجزئياته، ولا سيما الجزئيات المتعلقة بوجدانات النفس كالحب والكره، وما يترتب عليهما من الأعمال، فلما أطلق فى اشتراط العدل، اقتضى ذلك الإطلاق أن يفكر أهل الدين والورع والحرص على إقامة حدود الله وأحكامه فى ماهية هذا العدل وجزئياته، ويتبينوها كما تقدم آنفًا، فبين لهم سبحانه فى هذه الآية ما هو المراد من العدل، وأنه ليس هو الفرد الكامل الذى يعم أعمال القلوب والجوارح؛ لأن هذا غير مستطاع، ولا يكلف الله نفسًا إلا وسعها.

3- أما السنة النبوية: فعن عائشة رضى الله عنها قالت: «كان رسول الله ﷺ يقسم بين نسائه فيعدل، ويقول: «هذه قسمتى» ثم يقول: «اللهم هذا فعلى فيما أملك، فلا تلمنى فيما تملك ولا أملك».

وقد فسر صاحب الفتح الربانى هذا الحديث كما جاء فى مسند الإمام أحمد، ومما ذكره:

- «هذه قسمتى» فيما أقدر عليه.
- «فلا تلمنى» أى لا تعاقبنى ولا تؤاخذنى.
- «فيما تملك ولا أملك» إنما يعنى به الحب والمودة.
- توكيد وجوب القسم بين الضرائر الأحرار.
- المكروه من الميل هو ميل العشرة الذى يكون معه بخس الحق دون ميل القلب؛ فإن القلوب لا تملك[1].

وقد ذكر الإمام البخارى فى صحيحه فى كتاب النكاح: باب العدل بين النساء ﴿وَلَن تَسْتَطِيعُوٓاْ أَن تَعْدِلُواْ بَيْنَ ٱلنِّسَآءِ وَلَوْ حَرَصْتُمْ فَلَا تَمِيلُواْ كُلَّ ٱلْمَيْلِ فَتَذَرُوهَا كَٱلْمُعَلَّقَةِ وَإِن تُصْلِحُواْ وَتَتَّقُواْ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿١٢٩﴾ وَإِن يَتَفَرَّقَا يُغْنِ ٱللَّهُ كُلًّا مِّن سَعَتِهِۦ وَكَانَ ٱللَّهُ وَٰسِعًا حَكِيمًا ﴿١٣٠﴾﴾ [النساء الآيتان: 129، 130].

وقد علّق وشرح الحافظ ابن حجر ما ذكره البخارى بقوله: أشار بذكر الآية إلى أن المنفى فيها العدل بينهن من كل جهة وبالحديث إلى أن المراد بالعدل: التسوية بينهن بما يليق بكل منهن، فإذا وفّى لكل واحدة منهن كسوتها ونفقتها والإيواء إليها؛ لم يضره ما زاد على ذلك من ميل قلب، أو تبرع بتحفة...[2].

---

(1) الفتح الربانى: الشيخ أحمد عبدالرحمن البنا (القاهرة: دار الشهاب) (16ص ص238،237).

(2) فتح البارى: ابن حجر (القاهرة: مكتبة الكليات الأزهرية) (19ص 374).

وعند أبى داود وغيره من حديث عروة بن الزبير قال: قالت عائشة: يا بن أختى، كان رسول الله ﷺ لا يفضل بعضنا على بعض فى القسم.

وعند أبى داود وغيره - أيضًا - عن عروة بن الزبير - أيضًا- أن عائشة زوج النبى ﷺ قالت:

كان رسول الله ﷺ إذا أراد سفرًا، أقرع بين نسائه فأيتهن خرج سهمها خرج بها معه، وكان يقسم لكل امرأة منهن يومها وليلتها غير أن سودة بنت زمعة وهبت يومها لعائشة [1].

4- وفى كتب الفقه نختار كتاب المغنى لابن قدامة حيث أفرد فى مؤلفه هذا كتابًا سماه:

(كتاب عشرة النساء والخلع)[2] ومما ذكره فى هذا الكتاب ما يلى:

- قال الله تعالى: ﴿ وَعَاشِرُوهُنَّ بِٱلْمَعْرُوفِ﴾ [النساء:19].

- وقال ابن عباس: إنى لأحب أن أتزين للمرأة، كما أحب أن تتزين لى؛ لأن الله تعالى يقول: ﴿ وَلَهُنَّ مِثْلُ ٱلَّذِى عَلَيْهِنَّ بِٱلْمَعْرُوفِ ﴾ [البقرة:228].

- وقال ابن قدامة:

(لا نعلم بين أهل العلم فى وجوب التسوية بين الزوجات فى القَسْم خلافًا، وقد قال الله تعالى: ﴿ وَعَاشِرُوهُنَّ بِٱلْمَعْرُوفِ﴾ وليس مع الميل معروفٌ، وقال الله تعالىٰ: ﴿ فَلَا تَمِيلُوا كُلَّ ٱلْمَيْلِ فَتَذَرُوهَا كَٱلْمُعَلَّقَةِ ﴾ [النساء:129]، وروى أبوهريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «**مَنْ كَانَتْ لَهُ امْرَأَتَانِ فَمَالَ إِلَى إِحْدَاهُمَا؛ جَاءَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَشِقُّهُ مَائِلٌ**».

(1) رواهما أبو داود فى كتاب النكاح، باب: فى القسم بين النساء، حديث رقم (2135، 2138).

(2) المغنى: ابن قدامة، تحقيق عبدالله بن عبد المحسن التركى - د. عبدالفتاح محمد الحلو، ط2، (1413هـ - 1992م) (220/10).

وعن عائشة قالت: كان رسول الله ﷺ يقسم بيننا فيعدل، ثم يقول:

«اللَّهُمَّ هَذَا قَسْمِي فِيمَا أَمْلِكُ» رواهما أبو داود[1].

إذا ثبت هذا، فإنه إذا كان عنده نسوة، لم يجز له أن يبتدئ بواحدة منهن إلا بقرعة؛ لأن البداية بها تفضيل لها، والتسوية واجبة، ولأنهن متساويات فى الحق، ولا يمكن الجمع بينهن فوجب المصير إلى القرعة، كما لو أراد السفر بإحداهن[2].

5- لو علم المسلمون فى القديم والحديث أن التعدد حرام وأن العدل المفهوم من الآيات لا يتحقق؛ فكيف خالف المسلمون كتاب الله تعالى؟!

ألم يفهم الصحابة رضوان الله عليهم- وهم الذين عاصروا التنزيل وفهموا التأويل - مراد الله من كتابه؟

ألم يكن تعدد الزوجات أمرًا معروفًا مألوفًا، دون نكير، أو تفلسف أو معارضة من أحد، فى عصر الرسالة؟

هل كان إجماع الأمة على ضلالة ؟ واتفاقهم على انحراف؟ سبحانك ربنا هذا بهتان عظيم!

وخلاصة الرد على هذه الشبهة:

1- إن العدل المنفى فى الآية ﴿ وَلَن تَسْتَطِيعُوٓاْ أَن تَعْدِلُواْ بَيْنَ ٱلنِّسَآءِ ﴾ [النساء:129] هو العدل الكامل من كل وجه لا سيما العدل القلبى، وهو ليس مقدورًا عليه، ولا يطالب به الرجل؛ لأن الله لا يكلف نفسًا إلا وسعها.

---

(1) وغيره، كالترمذى فى باب التسوية بين الضرائر من كتاب النكاح، والنسائى فى باب ميل الرجل إلى بعض نسائه دون بعض، من كتاب عشرة النساء، وابن ماجه فى باب القسمة بين النساء من كتاب النكاح، ومسند أحمد (295/2، 347، 471، 144/6).

(2) المغنى: (235/10، 236).

2- إن العدل المطلوب هو المتعلق بحسن العشرة والتسوية فى الحقوق المقدور عليها من: نفقة وكسوة ومبيت، ونحو ذلك بـما لا يـؤدى إلى ميـل وانحـراف وظلـم، تشعر معه المرأة أنها معلقة لا هى زوجة ولا هى مطلقة.

3- لقد فهم الرسول ﷺ، والصحابة رضى الله عنهم، وانعقد الإجماع على مشروعية التعدد وفهم ما ورد على نحو ما سبق.

* * *

الشبهة الرابعة
تعدد الزوجات ظلم للمرأة
وسبب لفساد الأسرة وتشرد الأطفال

تعدد الزوجات ظلم للمرأة، وإهدار لكرامتها، وتمييز للرجل عنها، وسبب لفساد الأسرة وتشرد الأطفال، وضياع حقوق المرأة، ومثار للنزاع بين الضرائر، ومماقاله "قاسم أمين" فى هذا الشأن:

"وبدهى، أن فى تعدد الزوجات احتقارًا شديدًا للمرأة؛ لأنك لا تجد امرأة ترضى أن تشاركها فى زوجها امرأة أخرى... وعلى كل حال، فكل امرأة تحترم نفسها تتألم إذا رأت زوجها ارتبط بامرأة أخرى... وأن وقائع المنازعات بين النساء وأزواجهن، والجنايات التى تقع بينهم مما لا يكاد يحصى، وهو شاهد على أن تعدد الزوجات مثار للنزاع بينهن وبين ضرائرهن، وبين أزواجهن، ومصدر لشقاء الأهل والأقارب... ثم إن الأولاد من أمهات مختلفات ينشأون بين عواصف الشقاق والخصام، فلا يجدون ما يساعد غرائزهم على تمكين علائق المحبة بينهم، بل يجدون ما يعكس تلك الغرائز، وينمى فى نفوسهم البغضاء، ولايستطيع أحد أن يحول بين ما يشهدون من تخاصم أمهاتهم بعضهن مع بعض، وتخاصمهن مع والدهم، وبين أثر ذلك فى نفوسهم، بل يسرى فى أفئدتهم سم الغش والخدعة والشر..."[1].

---

(1) تحرير المرأة: (ص117) وما بعدها.

والجواب على هذه الشبهة من وجوه:

1- من كلام الأستاذ قاسم أمين نفسه حيث قال بنصه:

"ولا يعذر رجل يتزوج أكثر من امرأة، إلا في حالة الضرورة المطلقة، كأن أصيبت امرأته الأولى بمرض مزمن، لا يسمح لها بتأدية حقوق الزوجية.

أقول ذلك، ولا أحب أن يتزوج الرجل بامرأة أخرى، حتى في هذه الحالة وأمثالها، حيث لا ذنب للمرأة فيها، والمروءة تقضي أن يتحمل الرجل ما تصاب به امرأته من العلل، كما يرى من الواجب أن تتحمل هي ما عساه كان يصاب به.

وكذلك توجد حالة تسوغ للرجل أن يتزوج بثانية، إما مع المحافظة على الأولى إذا رضيت، أو تسريحها إن شاءت:

وهي ما إذا كانت عاقرًا لا تلد؛ لأن كثيرًا من الرجال لا يتحملون أن ينقطع النسل في عائلاتهم.

أما في غير هذه الأحوال فلا أرى تعدد الزوجات إلا حيلة شرعية لقضاء شهوة بهيمية، وهو علامة تدل على فساد الأخلاق واختلال الحواس، وشره في طلب اللذائذ" [1].

ولنا وقفات مع كلام الأستاذ قاسم أمين:

إذا كان يرى أن هناك مبررًا لتعدد الزوجات في حالتين، فلم لا يعطي الآخرين فرصة لتقديم حالات أخرى؟

ومعنى هذا ببساطة شديدة: أن هناك حاجة لتعدد الزوجات، وأيًّا كانت تلك الحاجة - فلا عبرة بعبارات التنديد - لأن الاعتراف سيد الأدلة.

- إن إساءة استخدام الحكم الشرعي ليس دليلًا على فساده، ولابد أن نفرق بين

(1) تحرير المرأة: ص ص(120- 121).

جانبين: المسلم فى واقعه، والإسلام فى أحكامه.

فقد يكون المسلم ظالمًا مع أن الإسلام لا يقر الظلم بحال من الأحوال حتى مع غير المسلمين، ومع كل الذين تنشأ بيننا وبينهم خصومة أو بغضاء، وصدق الله القائل:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ كُونُوا۟ قَوَّٰمِينَ لِلَّهِ شُهَدَآءَ بِٱلْقِسْطِ ۖ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَـَٔانُ قَوْمٍ عَلَىٰٓ أَلَّا تَعْدِلُوا۟ ۚ ٱعْدِلُوا۟ هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ ۖ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ [المائدة:8]

﴿۞ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ كُونُوا۟ قَوَّٰمِينَ بِٱلْقِسْطِ شُهَدَآءَ لِلَّهِ وَلَوْ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمْ أَوِ ٱلْوَٰلِدَيْنِ وَٱلْأَقْرَبِينَ﴾ [النساء:135]

عجيب من الأستاذ قاسم أمين وهو يذكر الحالة الأولى يتناقض مع نفسه بعد ذلك، فهو يرى أن مرض المرأة المزمن مبرر للزواج بأخرى، وإن كان لا يفضل ذلك من باب الشهامة والمروءة.

وحين يذكر الحالة الثانية من عقم المرأة، لا نجد أثرًا لتلك الشهامة والمروءة رعاية لحال كثير من الرجال الذين لا يتحملون أن ينقطع النسل فى عائلاتهم.

ونحن نتساءل: لو أن رجلًا بصحته وقوته مرضت زوجته بما لا تقوم معه بحقوق الزوجية، هل يمكن أن يصبر على ذلك؟ ومن هو هذا الرجل؟ وكم نسبة هؤلاء؟

إن المزايدة على دين الله لا تصدر من عاقل حكيم، يحترم الواقع ويقدر الظروف!

لكن حسبنا فى هذه النقطة أن الأستاذ قاسم أمين فتح لنا الباب فى إدراك الحكمة من تعدد الزوجات، حيث ذكر لنا حالتين:

الأولى: مرض الزوجة مرضًا مزمنًا تعجز معه على القيام بحقوق الزوجية.

الأخرى: عقم الزوجة.

بقى لنا أن نذكر بعض الحالات الأخرى التى تقرر الحكمة من تعدد الزوجات بما ينسف الاتهام القائم على أن التعدد ظلم وامتهان لكرامة المرأة، ونستهل هذا بكلام لصاحب الظلال فى هذا الشأن حيث يقول[1]:

إن الإسلام نظام للإنسان، نظام واقعى إيجابى، يتوافق مع فطرة الإنسان وتكوينه، ويتوافق مع واقعه وضروراته، ويتوافق مع ملابسات حياته المتغيرة فى شتى البقاع، وشتى الأزمان، وشتى الأحوال.

إنه نظام واقعى إيجابى، يلتقط الإنسان من واقعه الذى هو فيه، ومن موقفه الذى هو عليه؛ ليرتفع به فى المرتقى الصاعد، إلى القمة السامقة، فى غير إنكار لفطرته، أو تنكر؛ وفى غير إغفال لواقعه أو إهمال؛ وفى غير عنف فى دفعه أو اعتساف!

إنه نظام لا يقوم على الحذلقة الجوفاء؛ ولا على التظرف المائع؛ ولا على « المثالية » الفارغة؛ ولا على الأمنيات الحالمة، التى تصطدم بفطرة الإنسان وواقعه وملابسات حياته، ثم تتبخر فى الهواء!

وهو نظام يرعى خلق الإنسان، ونظافة المجتمع، فلا يسمح بإنشاء واقع مادى، من شأنه انحلال الخلق، وتلويث المجتمع، تحت مطارق الضرورة التى تصطدم بذلك الواقع، بل يتوخى دائمًا أن ينشئ واقعًا يساعد على صيانة الخلق، ونظافة المجتمع، مع أيسر جهد يبذله الفرد ويبذله المجتمع.

فإذا استصحبنا معنا هذه الخصائص الأساسية فى النظام الإسلامى، ونحن ننظر إلى مسألة تعدد الزوجات.. فماذا نرى؟

نرى.. أولًا.. أن هناك حالات واقعية فى مجتمعات كثيرة - تاريخية وحاضرة -

(1) فى ظلال القرآن (579/1).

تبدو فيها زيادة عدد النساء الصالحات للزواج، على عدد الرجال الصالحين للزواج.. والحد الأعلى لهذا الاختلال الذى يعترى بعض المجتمعات لم يُعرف تاريخيًّا أنه تجاوز نسبة أربع إلى واحد. وهو يدور دائمًا فى حدودها.

فكيف نعالج هذا الواقع، الذى يقع ويتكرر وقوعه، بنسب مختلفة. هذا الواقع الذى لايجدى فيه الإنكار؟

نعالجه بهز الكتفين؟ أم نتركه يعالج نفسه بنفسه حسب الظروف والمصادفات؟!

إن هز الكتفين لا يحل مشكلة! كما أن ترك المجتمع يعالج هذا الواقع حسبما اتفق لا يقول به إنسان جاد، يحترم نفسه، ويحترم الجنس البشرى!

ولا بد إذًا من نظام، ولا بد إذًا من إجراء..

وعندئذ نجد أنفسنا أمام احتمال من ثلاثة احتمالات:

1- أن يتزوج كل رجل صالح للزواج امرأة من الصالحات للزواج.

ثم تبقى واحدة أو أكثر - حسب درجة الاختلال الواقعة - بدون زواج، تقضى حياتها - أو حياتهن - لا تعرف الرجال!

2- أن يتزوج كل رجل صالح للزواج واحدة فقط زواجًا شرعيًّا نظيفًا. ثم يخادن أو يسافح واحدة أو أكثر، من هؤلاء اللواتى ليس لهن مقابل فى المجتمع من الرجال. فيعرفن الرجل خدينًا أو خليلًا فى الحرام والظلام!

3- أن يتزوج الرجال الصالحون - كلهم أو بعضهم - أكثر من واحدة. وأن تعرف المرأة الأخرى الرجل، زوجة شريفة، فى وضح النور لا خدينة ولا خليلة فى الحرام والظلام!

الاحتمال الأول: ضد الفطرة وضد الطاقة بالقياس إلى المرأة التى لا تعرف فى حياتها الرجال. ولا يدفع هذه الحقيقة ما يتشدق به المتشدقون من استغناء المرأة عن

الرجل بالعمل والكسب. فالمسألة أعمق بكثير مما يظنه هؤلاء السطحيون المتحذلقون المتظرفون الجهال عن فطرة الإنسان. وألف عمل وألف كسب لا يغنى المرأة عن حاجتها الفطرية إلى الحياة الطبيعية.. سواء فى ذلك مطالب الجسد والغريزة، ومطالب الروح والعقل من السكن والأنس بالعشير.. والرجل يجد العمل ويجد الكسب; ولكن هذا لا يكفيه، فيروح يسعى للحصول على العشيرة، والمرأة كالرجل - فى هذا - فهما من نفس واحدة!

والاحتمال الثانى: ضد اتجاه الإسلام النظيف; وضد قاعدة المجتمع الإسلامى العفيف; وضد كرامة المرأة الإنسانية. والذين لا يحفلون أن تشيع الفاحشة فى المجتمع هم أنفسهم الذين يتعالمون على الله ويتطاولون على شريعته؛ لأنهم لايجدون من يردعهم عن هذا التطاول، بل يجدون من الكائدين لهذا الدين كل تشجيع وتقدير!

والاحتمال الثالث: هو الذى يختاره الإسلام، يختاره رخصة مقيدة؛ لمواجهة الواقع الذى لا ينفع فيه هز الكتفين; ولا تنفع فيه الحذلقة والادعاء، يختاره متمشيًا مع واقعيته الإيجابية فى مواجهة الإنسان كما هو - بفطرته وظروف حياته - ومع رعايته للخلق النظيف والمجتمع المتطهر، ومع منهجه فى التقاط الإنسان من السفح والرقى به فى الدرج الصاعد إلى القمة السامقة. ولكن فى يسر ولين وواقعية!

ثم نرى.. ثانيًا.. فى المجتمعات الإنسانية - قديمًا وحديثًا - وبالأمس واليوم والغد - إلى آخر الزمان - واقعًا فى حياة الناس لا سبيل إلى إنكاره كذلك أو تجاهله.

نرى أن فترة الإخصاب فى الرجل تمتد إلى سن السبعين أو ما فوقها، بينما هى تقف فى المرأة عند سن الخمسين أو حواليها، فهناك فى المتوسط عشرون سنة من سنى الإخصاب فى حياة الرجل لا مقابل لها فى حياة المرأة. وما من شك أن من أهداف اختلاف الجنسين ثم التقائهما امتداد الحياة بالإخصاب والإنسال، وعمران الأرض

بالتكاثر والانتشار، فليس مما يتفق مع هذه السنة الفطرية العامة أن نكف الحياة عن الانتفاع بفترة الإخصاب الزائدة فى الرجال.

ولكن مما يتفق مع هذا الواقع الفطرى أن يسن التشريع - الموضوع لكافة البيئات فى جميع الأزمان والأحوال - هذه الرخصة - لا على سبيل الإلزام الفردى ولكن على سبيل إيجاد المجال العام الذى يلبى هذا الواقع الفطرى ويسمح للحياة أن تنتفع به عند الاقتضاء.. وهو توافق بين واقع الفطرة وبين اتجاه التشريع ملحوظ دائمًا فى التشريع الإلهى، لا يتوافر عادة فى التشريعات البشرية؛ لأن الملاحظة البشرية القاصرة لا تنتبه له، ولا تدرك جميع الملابسات القريبة والبعيدة ولا تنظر من جميع الزوايا ولا تراعى جميع الاحتمالات.

ومن الحالات الواقعية - المرتبطة بالحقيقة السالفة - ما نراه أحيانًا من رغبة الزوج فى أداء الوظيفة الفطرية مع رغبة الزوجة عنها - لعائق من السن أو من المرض - مع رغبة الزوجين كليهما فى استدامة العشرة الزوجية وكراهية الانفصال - فكيف نواجه مثل هذه الحالات؟

نواجهها بهز الكتفين، وترك كل من الزوجين يخبط رأسه فى الجدار؟! أم نواجهها بالحذلقة الفارغة والتظرف السخيف؟

إن هز الكتفين - كما قلنا - لا يحل مشكلة. والحذلقة والتظرف لا يتفقان مع جدية الحياة الإنسانية ومشكلاتها الحقيقية.. اهـ

2- التعدد علاج لمشكلة العنوسة والطلاق والترمل:

إن من أهم الظواهر الاجتماعية الملموسة فى العالم العربى والإسلامى بشكل خاص والعالم الإنسانى بشكل عام ظاهرة العنوسة والطلاق والترمل، ولو حاولنا التركيز على هذه الظواهر - لا سيما فى عالمنا العربى - لبرزت أمامنا الحقائق التالية:

أ- كشفت دراسة رسمية أعدها الجهاز المركزى المصرى للتعبئة العامة والإحصاء ارتفاع نسبة غير المتزوجين بين الشباب المصرى إلى 37٪، وأن عدد الشبان والشابات العوانس - الذين تجاوزوا الخامسة والثلاثين دون زواج - وصل إلى أكثر من 9 ملايين نسمة من تعداد السكان البالغ 64 مليون نسمة، بينهم 3 ملايين و773 فتاة، وقرابة 6 ملايين شاب غير متزوج.

ب- كما كشفت الدراسة عن أن عدد المطلقين والمطلقات بلغ 364 ألفًا و361 مصريًّا ومصرية، وأن عدد عقود الزواج التى تم إبرامها رسميًّا فى مصر عام 1999 بلغ 520 ألفًا بنسبة 8.2٪ من السكان، مقابل 405 آلاف عقد زواج فى عام 1990، أى بزيادة قرابة 115 ألف عقد زواج، فى حين بلغت عقود الطلاق التى تم استخراجها عام 1999 نحو 74 ألف حالة بنسبة 1.2٪ مقابل 67 ألف شهادة عام 1990.

وفى الإمارات:

لا تزال مشكلة العنوسة تفرض نفسها بقوة، رغم أن الدلائل تشير إلى حدوث تقدم نسبى، خاصة فيما يتعلق بمعدلات استمرار الحياة الزوجية بين المواطنين.. فقد كشفت إحصائية حديثة أجراها صندوق الزواج الإماراتى عن أن معدلات الطلاق بين الإماراتيين فى إمارة أبوظبى انخفضت عام 1999م إلى 5.16٪ مقابل 52٪ قبل عشرة أعوام، حيث بلغ عدد حالات الطلاق عام 99 نحو 138 حالة مقابل 810 زيجات، بينما وصلت حالات الطلاق عام 91 إلى 283 حالة مقابل 544 حالة زواج.

أما فى إمارة دبى:

- ثانية كبرى الإمارات السبع التى تتكون منها دولة الإمارات العربية المتحدة - فقد انخفضت نسب معدلات الطلاق إلى الزواج بين المواطنين لتصل إلى 20٪ عام 1999م بعد أن كانت 8. 25٪ عام 1995م، حيث بلغ عدد الزيجات عام 99 فى الإمارة 607 زيجات مقابل 121 حالة طلاق.

وإذا انتقلنا إلى المملكة العربية السعودية:

فإن الإحصاءات الرسمية التى صدرت عام 1999 تشير إلى أن ثلث عدد الفتيات السعوديات بلغن سن الزواج، وأن عدد من تجاوزن سن الزواج بلغ حوالى مليون ونصف مليون فتاة من بين نحو أربعة ملايين فتاة.

وأوضحت إحصائية لوزارة التخطيط السعودية أن عدد البنات اللاتى تجاوزن العام الماضى سن الثلاثين دون زواج قد بلغ مليونًا وخمسمائة وأربعة وتسعين ألفًا وثمانى عشرة بنتًا سعودية، وأن بحث كل فتاة عانس عن حل لمشكلة عنوستها يختلف من فتاة لأخرى، فمنهن من تلقى نفسها فى أحضان الخاطبات للبحث عن زوج بشروط قياسية، فى حين تنغمس الأخريات فى دوامة العمل، وربما يشاركن فى الفعاليات الثقافية والاجتماعية، وإن كان ذلك لا يبعد حلم الارتباط برجل عن أذهانهن.

هذه الأرقام المخيفة لارتفاع معدلات العنوسة دفعت المفتى العام للمملكة - رئيس هيئة كبار العلماء - الشيخ «عبد العزيز بن عبد الله آل شيخ» إلى أن يجدد دعوته لتعدد الزوجات، داعيًا السعوديات إلى تقبل منطق التعدد للحفاظ على البناء الاجتماعى للأسرة والمجتمع، وموضحًا أن تعدد الزوجات أمر شرعه الله لصالح المجتمع، وأن على المرأة أن تقبل أن تكون زوجة ثانية أو ثالثة باعتبار ذلك خيرًا من العنوسة. وأضاف أن زواج المرأة من رجل ذى دين وكفاءة وخلق ومعه زوجة أخرى لا عيب ولا نقص فيه، مجددًا تأكيده بأن التعدد أمر مشروع، وأن الذى يشكك فيه ضال.

أما المشهد فى السودان:

- فيختلف كثيرًا عن باقى الدول العربية، إذ إن مشكلة العنوسة ألقت بظلالها على قضايا التنمية وإعمار السودان، باعتبار أن عدد سكان البلاد لا يتناسب مع مساحتها وإمكاناتها ومواردها المختلفة، لدرجة أن الرئيس "عمر البشير" دعا

السودانيين إلى تعدد الزوجات، وظل يحض المسؤولين والمواطنين على ذلك، ويطالب برعاية أسر الشهداء.

ولم يكتف البشير بالدعوة لتعدد الزوجات عبر مختلف المنابر، بل حول دعوته إلى نهج عملي حين أقدم بنفسه على الزواج من أرملة العقيد "إبراهيم شمس الدين" - وزير الدولة السابق الذى قتل خلال حادث تحطم طائرة عسكرية بولاية الوحدة فى جنوب السودان - إلى جانب احتفاظه بزوجته الأولى، وهى ابنة عمه فى الوقت نفسه.. كما عقد اللواء "الهادى عبدالله" وزير رئاسة مجلس الوزراء قرانه أيضًا على أرملة أحد الشهداء.

وينظر إلى تعدد الزوجات فى السودان باعتباره وضعًا عاديًّا، وأحيانًا يعد من مفاخر الرجال، بل إن الزوجات الأوليات لا يتعاملن مع الأمر بوصفه نهاية العالم، فكثيرًا ما تسعى الزوجة الأولى لتزويج زوجها بثانية وربما ثالثة ورابعة، مادام الزوج قادرًا على الوفاء بالتزامات هذه الزيجات وتبعاتها.

يبقىٰ أمامنا بلدان فى غاية الأهمية هما: تونس، والعراق.

تونس:

لم يعد غريبًا أن تجد فى تونس - أحد أكثر المجتمعات العربية انفتاحًا على الغرب - نساء تجاوزن العقد الرابع وما زِلن عانسات فى وقت أصبح فيه العمل والدراسة من أولويات المرأة فى تونس.

وكشفت آخر الإحصائيات الرسمية التى وردت فى التعداد العام للسكان الذى أجرته الحكومة فى أواخر عام 2004 أن نسبة العنوسة فى تونس بلغت 38 بالمئة عام 2004 ليرتفع عدد العازبات إلى أكثر من مليون و300 ألف امرأة من مجموع نحو أربعة ملايين و900 ألف أنثىٰ فى البلاد مقارنة مع نحو 990 ألف عازبة عام 1994.

تأتى المرأة التونسية على رأس النساء العربيات من حيث التحرر والمشاركة فى الحياة الاجتماعية والاقتصادية؛ حيث تشغل نحو 20 بالمئة من المقاعد فى البرلمان التونسى الذى يهيمن عليه أنصار الحكومة، إضافة إلى أنها ستحظى بداية من الانتخابات البلدية القادمة فى مايو آيار المقبل بنسبة 25 بالمئة من المقاعد، هذا إلى جانب أن حقيبتين وزاريتين فى الحكومة من نصيب النساء.

وفسر باحثون فى علم الاجتماع تفاقم ظاهرة العنوسة بتفتح المرأة التونسية أكثر من أى وقت مضى على المجتمعات الغربية، وميلها إلى تحقيق استقلالها المادى والمعنوى، إضافة إلى سعيها للتحرر الاجتماعى، هذا إلى جانب تفضيل فئة منهن العيش خارج الروابط الزوجية التقليدية.

وقال "المهدى بن مبروك" وهو باحث اجتماعى تونسى لرويترز: هناك تحولات قيمية فى المجتمع، حيث برزت أشكال جديدة للإشباع العاطفى، وتراجعت قيمة الأسرة والزواج مقارنة بالأنماط الأخرى من العيش.

وأضاف: أن نسب الطلاق المرتفعة جعلت هناك حذرًا وعزوفًا متزايدًا لدى الفتيات والفتيان على حد سواء، هذا إلى جانب التفتح الكبير على حضارات غربية مما جعل الزواج يتراجع فى أولويات الفتاة فى تونس لحساب الدراسة والتحرر المادى والمعنوى.

وأشارت دراسة حكومية نشرتها وزارة العدل إلى أن عام 2004 سجل نحو 16 ألف قضية طلاق فى تونس من بينها عشرة آلاف قضية صدرت بشأنها أحكام.

فى المقابل تؤكد أطراف أخرى: أن خروج المرأة للعمل وتحملها مسؤوليات مهمة جعل سن الزواج يتأخر اضطرارًا أو اختيارًا أو يفوتهن نهائيًّا.

وقدر التعداد العام للسكان فى أواخر 2004 عدد النساء العاملات بنحو 733 ألف امرأة مقارنة بنحو 500 ألف امرأة عاملة سنة 1994.

وتقول سلوى التى تجاوزت 39 من العمر ولم تتزوج بعد، وهى موظفة فى بنك لرويترز: إن تأخر سن الزواج متفشٍّ خصوصًا فى المدن الكبرى؛ حيث تفضل أغلب الفتيات هنا بناء مستقبلهن قبل أى ارتباط؛ خوفًا مما قد يخفيه الزمن من مفاجآت.

وتضيف سلوى بحسرة غير خافية: أنا غير محظوظة.. لو يعود الزمن لن أختار نفس الطريق سأفضل الرجل على العمل.. فى هذه السن المتأخرة نكتشف نحن الفتيات أهمية وجود الرجل فى حياتنا وينتفى أى شيء مقابل الإحساس بالدفء الأسرى.

أما حصيلة القتلىٰ فى العراق؛ فقد حصد أكثر من 150 ألف قتيل منذ الاحتلال الأمريكى فى آذار/ مارس 2003م، وتقول قوات الأمن العراقية: إنها خسرت قرابة 12 ألف عنصر، فى حين تكبدت قوات الاحتلال الأمريكية والدول المتحالفة معها أكثر من ثلاثة آلاف وخمسمائة قتيل.

والمتأمل فيما صنعته أمريكا فى العالم يصدق ما ذكرته مجلة المنار فى عددها 84 (رجب 1428) تحت عنوان شريعة الغاب الأمريكية، وفيها:

شريعة الغاب الأمريكية:

إن أمريكا دولة استيطانية عنصرية قامت على الاحتلال والتمييز العنصرى، فالأرض التى تقوم عليها هذه الدولة ليست بأرضها، فقد أبادت 42 مليونًا من سكانها الأصليين (الهنود الحمر) بكل وسائل الإبادة (مذابح، السلاح البيولوجى).

فالأمريكان هم مخترعو أسلحة الدمار الشامل، وقد استخدموه فى حروبهم مع الهنود الحمر، فنشروا وباء الجدرى بينهم بتوزيع أغطية عليهم تحمل هذا الوباء، وهم أول من استخدم القنابل النووية فى ضربهم لجزيرتى (نجازاكي) و (هروشيما) اليابانيتين بعد ميل المجلس الحاكم فى اليابان إلى الاستسلام، واستخدموا قنابل

النابلم المحرمة دوليًا فى حرب فيتنام، كما استخدمت أمريكا السلاح الكيماوى (الإيجانت أورانج) وغيرهما، واستخدمت القنابل العنقودية واليورانيوم المنضب، وهو أحد أسلحة الدمار الشامل فى العراق عام 1991م، وفى حربها الأخيرة فى أفغانستان، وأثناء احتلالها للعراق.

ولو قلبنا فى تاريخ هذه الدولة نجد أنها أشعلت نيران مائتى حرب منذ قيامها حتى الآن وقامت بـ 130 تدخلًا عسكريًا خلال القرن الماضى، وهذه الإحصائية مجمعة من مصادر رسمية أميركية، من ذلك تدخلها العسكرى فى الفلبين سنة 1898حتى 1910، حيث قتل أكثر من 600 ألف فلبينى وهم يقاومون الاحتلال الأميركى، بالإضافة إلى ذلك هناك عشرات الأمثلة الأخرى، فلقد قصفت الطائرات الأمريكية مدينة (درزدن) الألمانية فى الحرب العالمية الثانية، إذ قتلت فى 3أيام 250 ألف إنسان، فى قصف متواصل لا يرحم.

وعندما نتحدث عن فيتنام بين عام 61 و 75 نجد أكثر من مليونى فيتنامى قتلوا فى تلك الحرب، وإذا نظرنا إلى أمريكا اللاتينية نجد عشرات الحالات التى تدخلت فيها الولايات المتحدة من أجل فرض حكومات موالية لها بالقوة، هذا عدا التدخل فى الانتخابات لفرض رؤساء تابعين لها، ومن ذلك على سبيل المثال احتلال نيكاراجوا 20 عامًا بين 1912 و 1933، وأيضًا احتلال هايتى 19 عامًا، واحتلال جمهورية الدومينيكان 8 أعوام.

وهنالك أمثلة كثيرة على تدخلات دموية، منها التدخل الدموى فى السبعينات فى تشيلى والذى أودى بحياة حوالى 700 ألف، كما تقول الإحصائيات أن مليونًا و 750 ألف عراقى قتلوا بسبب الحصار المجرم الذى تفرضه حكومة الولايات المتحدة على العراق، إضافة إلى قتلها الآلاف فى حربها لأفغانستان وحربها الحالية على العراق، عدا عن عشرات الألوف من الجرحى، وجاء فى أحد التقارير عن وصول مائة جريح كل ساعة إلى مستشفيات بغداد فى حينه، وأن العراق مهدد بنكسة صحية كبرى.

وعلينا ألا ننسىٰ الدعم اللامحدود الذى تقدمه الولايات المتحدة الأمريكية للكيان الصهيونى فى فلسطين الذى قتل الآلاف من الفلسطينيين، وبأسلحة أمريكية...

لقد بدأت الولايات المتحدة تلعب دورًا دوليًّا اتسم بالوحشية والإجرام، فقد بلغ عدد قتلى الحروب الأمريكية أكثر من ثمانية ملايين، وبعض المصادر تقول إنهم بلغوا ستين مليونًا من البشر، مما دعا بوزيرة العدل الألمانية إلى تشبيه الرئيس الأميركى بـ" أدولف هتلر" ووصف الكاتب البريطانى "إدريان هملتون" أمريكا بأنها أكبر نموذج للدولة المارقة فى العالم؟

ولو أضفنا إلى هذه المجازر البشرية ما خسره العالم فى الحرب العالمية الأولى أكثر من ستة عشر مليونًا، وفى الحرب العالمية الثانية قرابة سبعين مليونًا!!

ناهيك عن الحروب فى أفريقيا والعراق وأفغانستان والشيشان.

فماذا يبقىٰ للأرامل بعد فقدان الأزواج؟؟

ألا تعد الحروب سببًا من أسباب تعدد الزوجات حيث تحصد الحروب الرجال وهم غالبًا الذين يخوضونها؟! كل هذه الملايين التى قُتلت وأغلبهم ذكور؟ مَنْ يعوضهم؟

3- هل كل شاب صالح للزواج قادر على الزواج؟

لنفرض جدلًا أن عدد النساء يساوى عدد الرجال، فهل لكل امرأة صالحة للزواج رجل صالح قادر على تكاليف الزواج؟ لا شك أن التقارير الواردة فى هذا الشأن - وهى لا تحتاج إلى مراجعة فالواقع يؤكدها - تؤكد أن الأزمة الاقتصادية هى السبب الرئيسى فى عزوف كثير من الشباب عن الزواج، وهذه الأزمة الاقتصادية لها أشكال متعددة منها: ارتفاع نسبة البطالة، ونسبة الفقر.

ففى تقرير عن حالة العالم الإسلامى عام 2000م (أرقام ومؤشرات) بلغ عدد سكان العالم الإسلامى.1.361.441 أى أكثر من مليار وثلث مليار، وقد بلغت نسبة السكان تحت مستوى خط الفقر 37٪، ومعدل التضخم 14٪، ونسبة البطالة 19.2٪ ومعنى ذلك أن ما يعادل 405 ملايين شخص تقريبًا تحت مستوى الفقر، والأرقام الواردة هنا تخص الدول الأعضاء فى منظمة المؤتمر الإسلامي، وعددها ست وخمسون دولة، إن الأحلام والأمانى لا تعالج المشاكل، فقد يقول قائل: لنصدر قانونًا يوزع ثروات الأمة على الفقراء، ومنهم الشباب الذى لا يجد تكاليف الزواج، لا سيما أن هناك أكثر من سبعين مليارًا تنفق على التسليح وهو اقتراح وجيه، لكن هل يمكن أن يقضى على مشكلة العنوسة والطلاق والترمل؟ أم أن هناك بالضرورة أعدادًا زائدة لن تجد من يتزوجها؟! فماذا تصنع؟

وقد يقال: لنصدر تشريعًا بمحاربة المغالاة فى المهور حتى نشجع الشباب على الزواج، ونزيح أكبر عقبة أمامهم لإتمام زواجهم.

والسؤال هو: هل تحديد المهور علاج للمشكلة؟

والجواب: أنه يساعد فى ذلك، لكنه لا يقضى عليها من جانب، كما أن الناس ليسوا سواء فى مستوياتهم الاجتماعية، وقديمًا أراد عمر بن الخطاب أن يصنع ذلك، فماذا جرى؟

جاء فى تفسير ابن كثير عن مسروق قال: ركب عمر بن الخطاب منبر رسول الله ﷺ ثم قال: أيها الناس، ما إكثاركم فى صداق النساء وقد كان رسول الله وأصحابه والصدقات (المهور) فيما بينهم أربعمائة درهم، فما دون ذلك، ولو كان الإكثار فى ذلك تقوى عند الله أو كرامة لم تسبقوهم إليها، فلأعرفن ما زاد رجل فى صداق امرأة على أربعمائة درهم، قال: ثم نزل فاعترضته امرأة من قريش فقالت: يا أمير المؤمنين، نهيت الناس أن يزيدوا فى مهر النساء على أربعمائة درهم؟ قال: نعم.

فقالت: أما سمعت ما أنزل الله فى القرآن؟ قال: وأى ذلك؟ فقالت: أما سمعت الله يقول: ﴿وَءَاتَيْتُمْ إِحْدَىٰهُنَّ قِنطَارًا﴾ [النساء:20] قال: فقال: اللهم غفرًا، كل الناس أفقه من عمر، ثم رجع فركب المنبر، فقال: أيها الناس إنى كنت نهيتكم أن تزيدوا النساء فى صدقاتهم على أربعمائة درهم، فمن شاء أن يعطى من ماله ما أحب، **قال أبو يعلى: وأظنه قال:** فمن طابت نفسه فليفعل[1].

4- زيادة نسبة الإناث عن نسبة الذكور:

وموارد هذه الزيادة كثيرة، منها:

أ- ما سبق بيانه من معارك وحروب تحصد الرجال دون النساء، فالرجال هم العنصر الغالب فى خوض المعارك، وهم الذين يتعرضون للقتل؛ كما حدث فى ألمانيا حيث قلّت نسبة الرجال إلى النساء، وعقب الحرب العالمية الثانية إذ بلغت: 1- 9[2].

ب- نسبة الوفيات فى المواليد و الكبار تزيد فى الذكور عن الإناث، حيث إن تحمل الطفل الذكر أقل من تحمل الأنثى، ولذلك تزيد نسبة الوفيات فى المواليد الذكور عن الإناث كما أن معدلات الوفيات عند الرجال الكبار أكثر منها عند النساء فإن معدلات الأعمار حاليًا - على سبيل المثال - فى البلاد العربية قد تراوحت بين أعلى مستوياتها (74.9) عامًا للرجال، (79.3) عامًا للنساء فى الكويت، وأكثرها انخفاضًا (39.9) للرجال، (41.6) للنساء فى جيبوتى[3].

جـ- تؤكد الدراسات الديمغرافية (السكانية) كثرة عدد الإناث على جهة العموم عن عدد الرجال، وبالتالي، كان التعدد ضرورة سكانية.

---

(1) تفسير ابن كثير 1/ 467 وقال عن الحديث: إسناده جيد قوى.

(2) الأسرة بين التشريع الإسلامى والقوانين الوضعية، مرجع سابق، ص 137

(3) تقرير عن السكان فى العالم العربى.

5- هناك ثروات اقتصادية تجعل مـن التعـدد وسيلة لتكثـير النـسل، وفى العـالم الإسلامى ثروات ضخمة حيث تبلغ مساحته أكثـر مـن 28مليـون كـم2، والنـاتج المحلى الإجمالى 3500 مليار دولار تقريبًا، ويشكل العالم العربى أكبر مساحة جغرافية لأمـة واحـدة عـلى ظهـر الأرض، حيـث تبلـغ مـساحته العـالم العربـى حـوالى 13.487.814كم تقع 22٪ تقريبًا فى قارة آسيا، 78٪ فى أفريقيا، ويبلـغ عـدد الـسكان أكثر من ثلاثمائة مليون نسمة، ففى تقـديرات عـام 2000م بلـغ عـدد الـسكان 291 مليون.

وتعتبر مصر أكبر الدول العربية، فقد زاد عدد سكانها فى إحصاء 2006م عـن 72 مليون نسمة.

وبالنظر إلى الثروات الاقتصادية المتنوعة فى العالم العربى نجد: أن نسبة الـسكان مقارنة بالمساحة نسبة غير متوازنة، ومـن المتوقـع أن تـنخفض نـسبة الـسكان عـن المعدلات السابقة من 4.2٪ إلى 3.1٪ إن الموارد الطبيعيـة المتنوعـة فى العـالم العربـى والإسلامى تشكل تحديًا كبيرًا يحتاج إلى مزيد من البشر، حيث تبلـغ نـسبة الأراضى الزراعية 11.3٪، ناهيك عن إنتاج النفط والغاز الطبيعى[1].

وانظر بلدًا مثل السودان كم يحتاج إلى أعداد هائلة من البشر للاستفادة من ثروته الاقتصادية.

فلا غرابة أن نجد رئيسه البشير يشجع على تعدد الزوجات ويبدأ بنفسه!

6- تعدد الزوجات علاج من عنت الحرام، وتحصين الرجل من الزنـا والوقـوع فى الفاحشة. وفى هذا المعنى يؤكد الأستاذ الدكتور «محمـد البهـى» أن التعـدد مخـرج مـن ارتكاب جريمة الزنا وحل لأزمـة العلاقـة الجنـسية: «إن انتـشار المخادنـة فى الغـرب والتحول الآن فى النظـرة إلى الزنـا وعـده أمـرًا لا مثـيرًا للقلـق فى العلاقـة الزوجيـة، ولايكون بسببه فرقة بين الـزوجين إن ثبـت فى جانـب أى مـنهما، يوضـح أن العلاقـة الزوجية فى الغرب أصبحت شكلًا لا موضوع له.

(1) The world face book 2000 ، وانظر دليل التنمية البشرية لعام 1999م.

ولو قورن مبدأ تعدد الزوجات بتعدد الخدينات فى نظام الزوجة الواحدة لكان ما تعانى منه المجتمعات المعاصرة من النظام الأخير فى مشكلة الطفولة غير الشرعية، ومشكلة انتشار الأمراض التناسلية كافيًا على البرهنة على أن تعدد الزوجات أهون السبل وأقلها ضررًا وخطرًا.

إن تعدد الزوجات لا يتمحض مع ذلك لمساوقة حيوانية الرجل فى العلاقات الجنسية، وإنما افترض هذا السبب؛ لأنه أدنى الأسباب درجة فى الاعتبار، وأكثرها مأخذًا فى العلاقات الإنسانية والأسرية».

ومعنى ذلك أن تعدد الزوجات خير من تعدد العشيقات والخليلات، وأيهما أصون للمرأة: أن تكون زوجة أم أن تكون عشيقة؟

7- إن دعوى تعدد الزوجات مثار للخصومات بين الضرائر وما يترتب على ذلك من ضغائن بين الأولاد من أمهات شتى دعوى مقبولة حين تسوء الأخلاق وتفسد التربية ونبتعد عن دين الله تعالى.

والسؤال الذى يفرض نفسه: لماذا عاش المسلمون فى تاريخهم الطويل مع وجود التعدد، ولم نقرأ لأحد أنه طالب بمنع التعدد تجنبًا لهذه الخصومة، وتخليصا للأولاد من تلك الضغائن؟

إن الفساد حين يعم يغيب الوئام ويفسد الأنام، ويشوه الأحكام، وحين يعم الخير، وتسود الشريعة، ونتحاكم إلى الدين فلن نجد إلا كل خير للزوجات وللأولاد.

فالزوجة لها حقوق على الرجل، سواء أكانت الزوجة الأولى أم الثانية أم الثالثة أم الرابعة، وحسن العشرة هو منبع الحب، ومصدر الوئام، وللأولاد حقوق، سواء أكانوا أشقاء أم إخوة لأب أم إخوة لأم.

ولا شك أن حقوقهم - على اختلاف مراتبهم - دليل على تقدير الإسلام لهم جميعًا، وتقرير بإباحة أن يتزوج الرجل ويجمع بين أكثر من امرأة، وأنه لا مانع إذا طلقت المرأة أن تتزوج بآخر، المهم إشاعة الفضيلة فى ظل علاقة مشروعة تتحدد فيها الحقوق والواجبات، وتصان فيها الحرمات.

فعل ذلك رسول الله ﷺ وكان أولاد زوجاته بمنزلة أولاده، واقتدى الصحابة الأطهار بسيد الأبرار، فكان الرجل بمنزلة الأب لأولاد زوجته، سواء مات عنها زوجها أو تم طلاقها، فعاش الجميع فى ظل منهج الإسلام: إخوة متحابين لا أعداء متخاصمين، وإذا كان الواقع الأليم يشهد بوجود خصومات بين الزوجين، فليس مرد ذلك أبدًا إلى تعدد الزوجات، فكل القضايا - إلا النادر منها - التى تنتهى بالطلاق تكون بين رجل وامرأة واحدة لم يجمع عليها أخرى؛ فإن الثابت أن نسبة التعدد لا تكاد تذكر، فالمسألة لا علاقة لها بتعدد الزوجات، وإنما تتعلق بفساد التربية وسوء الأخلاق؛ بما يهدد الأسرة بالضياع، إن هذه الشناعة لا معنى لها مع أعداد الطلاق للزوجة الواحدة وشيوع الفاحشة، وانتشار الرذيلة، يقول د. محمد عبدالله دراز: «والواقع أننا نجد فى كل زمان ومكان من الرجال من يكتفون بزوجة واحدة، وآخرين أكثر اشتهاء للنساء بفطرتهم، أليس منع هؤلاء من التزوج بأخرى فى ظل شروط عادلة وشرعية إثارة لمشاعر الحقد على زوجاتهم حتى يتمنوا لهن الموت؟ أليس هذا دفعًا لهم إلى خيانة خادعة ومنافقة لهن؟.... بيد أنه مما ينطق بالتناقض أن أولئك الذين يمنعون زواج الرجل بأخرى، يسمحون فى الوقت نفسه بصورة عامة بالمسامحة، واتخاذ الرفيقات وبكل صنوف الوصال الطليق، شريطة ألا يوقّع الطرفان عقدًا رسميًّا يضفى الشرعية على العلاقة. أليس الانخفاض التدريجى فى معدل المواليد، والعدد الهائل من الأمراض الجنسية والأطفال المجهضين والعاهرات علنًا وسرًّا والكثير من ضروب البأس الماثلة؟ أليس هذا كله نتيجة

منطقية لهذا الشذوذ في التشريع؟»[1].

فما ذنب تعدد الزوجات؟

8- قد يقال: لماذا لا تتساوىٰ النساء بالرجال فى تعدد الزوجات؟

أليس هذا تميزًا وعدم مساواة بين الطرفين؟

والجواب ببساطة كما ذكره الأستاذ الدكتور "محمد البهى" يتضمن ما يلى:

أ - إن الرجل الذى يجمع أكثر من واحدة إلى أربع فى زيجة واحدة يتحمل مسؤولية كل واحدة منهن على استقلال، ويتحمل مسؤولية من يأتى منها من أولاد فى غير شبهة أو اختلاط.

مَنْ يتحمل مسؤولية الرجال الأربعة - مثلًا - لزوجة واحدة؟ أهى الزوجة نفسها أم واحد من الأزواج ؟ وأيهم؟ أم الأزواج جميعًا مسئولون مسؤولية مشتركة متضامنة عن المرأة ؟ ومن يتحمل مسؤولية الأولاد؟

ب- أتستطيع الزوجة الواحدة لأربعة رجال مثلاً فى زيجة واحدة أن تعاشرهم الأربعة معاشرة جنسية بصفة مستمرة، وفى غير انقطاع، وبها لها من وقت حيض ونفاس وما تقوم به من إرضاع ورعاية للأولاد؟

جـ- إن طبيعة الأنوثة فى المرأة نفسها تنكر تعدد الأزواج لها، وتأبىٰ تعدد الأزواج لها، لعوامل صحية ونفسية، وكذلك طبيعة المجتمع السليم؛ لأن ذلك يتنافى مع المسؤولية الفردية فى بناء الأسرة، ولأنه يتنافى - أيضًا - مع وضع العلاقات المطمئنة بين الأفراد وهى علاقات المحبة وتجنب الشحناء والخصومة.

د- إن العاهر لا تمكن الرجال منها حبًّا فى المعاشرة الجنسية، وفى رضا نفس، إنما هى مكرهة من أجل زلة لا تستطيع تجاوزها، أو من أجل لقمة العيش.إنها فى واقع الأمر تستهلك نفسها وحياتها وحيويتها بجانب استهلاكها لإنسانيتها، إنها لاتعيش

(1) دستور الأخلاق فى القرآن : هامش ص ص 715 - 716

إلا فى صورة إنسان، وإنها إذ تضحك تبكى، إنها بائسة يائسة، وذلك كله من أجل العدد من الرجال معها [1].

9- قد يقول قائل: إن علاج مشاكل المطلقات والأرامل بإيوائهن فى مؤسسات اجتماعية توفر لهن حياة شريفة، أو توفرلهن الرعاية الاجتماعية والاقتصادية بحيث لا يحتجن إلى أزواج؟

والجواب من وجوه:

أ- إن العامل الاقتصادى والرعاية الاجتماعية وحدها لا تغنى المرأة عن الغريزة الجنسية، ولو كانت المسألة تتعلق بالإنفاق على المرأة وحده، ما انتشر البغاء بين نساء الطبقات الراقية، وفى قصة يوسف عليه وعلى نبينا الصلاة والسلام ردّ شاف وجواب كاف، فما الذى كان ينقص امرأة العزيز حتى تراود يوسف عن نفسه؟وما الذى حمل النسوة فى المدينة على إغرائه ودعوته للحرام حتى استجار بربه واعتصم بخالقه؟

فقال بعد تهديد ووعيد لكيلا يقع فى الحرام ليس مع امرأة العزيز وحدها وإنما شمل نساء الطبقة الراقية ﴿قَالَ رَبِّ ٱلسِّجۡنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدۡعُونَنِيٓ إِلَيۡهِۖ وَإِلَّا تَصۡرِفۡ عَنِّي كَيۡدَهُنَّ أَصۡبُ إِلَيۡهِنَّ وَأَكُن مِّنَ ٱلۡجَٰهِلِينَ﴾ [يوسف:33]، لقد استجاب الله دعاءه وصرف عنه كيدهن.

وعلى سنة امرأة العزيز قديمًا تتجدد المواقف بما لا يدع مجالًا للشك، إن العامل الاقتصادى ليس كافيًا فى صرف المرأة عن الزواج، بل إن المرأة الغربية ذات الاستقلال الاقتصادى تعيش محنة أخلاقية (ووصل الاستقلال الاقتصادى، عن

---

(1) الإسلام واتجاه المرأة المعاصرة: د. محمد البهى. ط 2 (القاهرة، مكتبة وهبة / شوال 1401/ أغسطس 1982) ص 43، الفكر الإسلامى والمجتمع المعاصر - مشكلات الأسرة والتكافل: د. محمد البهى، ط3 (القاهرة: مكتبة وهبة 1402هـ/ 1982م) ص227.

طريق العمل خارج المنزل، بحرية المرأة الشخصية: إلى رفض الزواج كنظام فى بناء الأسرة، وإيثار العلاقة المؤقتة بين الرجل والمرأة عليه فى الإقامة والسكنى، وممارسة العلاقة الجنسية بينهما كى تبتعد كلية عن قيود الطلاق المعقدة هناك...)[1].

ب - لقد بات معلومًا أن الغريزة الجنسية فطرة لا يمكن للإنسان الطبيعى أن يقضى عليها؛ لذا حرَّم الإسلام الرهبانية، ونهى رسول الله ﷺ عن التبتل والانقطاع للعبادة، كما صرف أصحابه عن الإخصاء ولو أذن لهم لاختصوا، و لا شك أن المجتمعات الغربية أكثر من غيرها، لاتقيل صرف المرأة عن الشهوة الجنسية، ويعتمد الغرب نظرية "فرويد" التى تذهب إلى أن الجنس غريزة لدى الطفل بعد ولادته، وأن الأولاد الذكور يحبون أمهاتهم بدافع جنسى (عقدة أوديب) وأن الإناث يحببن آباءهن بدافع جنسى (عقدة أليكترا) وأن كبت الطاقة الجنسية يؤدى إلى جلب الأمراض النفسية وأن تحقيق الفرد لذاته لا يكون بغير الإشباع الجنسى[2].

جـ - إننا لا نجد سببًا معقولًا يمكن أن تعيش فيه المرأة بعيدة عن جو الأسرة وحياة الأمومة، ذلك النداء الذى لا يمكن أن تستغنى عنه امرأة، إنه الحلم الكبير، والأمل العريض، وهذا لا يمكن أن يتحقق فى ظل ابتعاد المرأة عن الرجل.

إن المرأة العربية قبل الإسلام كانت أكثر حكمة من تلك الأصوات المنكرة، ففى وصية أُمامة بنت الحارث لابنته: أم إياس:

إن الوصية لو تُركت لفضل أدب، تركت لذلك منك، ولكنها تذكرة للغافل. ومعونة للعاقل، و لو أن امرأة استغنت عن الزوج لغنىٰ أبويها، وشدة حاجتها إليها، كُنتِ أغنى الناس عنه، ولكن النساء للرجال خلقن، ولهن خلق الرجال[3].

---

(1) الإسلام واتجاه المرأة المعاصرة: ص9.

(2) راجع النظرية الفرودية وموقف الإسلام منها، د. عويس النجار. رسالة دكتوراه، كلية الدعوة 1422هـ / 2002م، ص 60 وما بعدها.

(3) أدب النساء فى الجاهلية والإسلام: د. محمد بدر معبدى (القاهرة: مكتبة الآداب) ص 17.

10- كيف يسمح القرآن باستبدال الزوجات كأنها شيء عديم القيمة وعلاقة الزوج علاقة طاهرة ؟

يشير بهذا إلى قوله تعالى: ﴿وَإِنْ أَرَدتُّمُ ٱسْتِبْدَالَ زَوْجٍ مَّكَانَ زَوْجٍ وَءَاتَيْتُمْ إِحْدَىٰهُنَّ قِنطَارًا فَلَا تَأْخُذُوا۟ مِنْهُ شَيْـًٔا﴾ [النساء:20].

ولنترك صاحب الظلال يتحفنا بتفسير تلك الآيات في هذا السياق لنعلم مدى المغالطة التي يثيرها غير المسلمين لأحكام الإسلام دون فهم أو إدراك، يقول صاحب الظلال[1]:

ولقد كانت الجاهلية العربية - كما كانت سائر الجاهليات من حولهم - تعامل المرأة معاملة سيئة.. لا تعرف لها حقوقها الإنسانية، فتنزل بها عن منزلة الرجل نزولًا شنيعًا يدعها أشبه بالسلعة منها بالإنسان. وذلك في الوقت الذي تتخذ منها تسلية ومتعة بهيمية، وتطلقها فتنة للنفوس، وإغراء للغرائز، ومادة للتشهي والغزل العاري المكشوف.. فجاء الإسلام ليرفع عنها هذا كله ويردها إلى مكانها الطبيعي في كيان الأسرة، وإلى دورها الجدي في نظام الجماعة البشرية. المكان الذي يتفق مع المبدأ العام الذي قرره في مفتتح هذه السورة: ﴿ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَآءً﴾ [النساء:1] ثم ليرفع مستوى المشاعر الإنسانية في الحياة الزوجية من المستوى الحيواني الهابط إلى المستوى الإنساني الرفيع، ويظللها بظلال الاحترام والمودة والتعاطف والتجمل؛ وليوثق الروابط والوشائج فلا تنقطع عند الصدمة الأولى وعند الانفعال الأول:

﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا يَحِلُّ لَكُمْ أَن تَرِثُوا۟ ٱلنِّسَآءَ كَرْهًا ۖ وَلَا تَعْضُلُوهُنَّ لِتَذْهَبُوا۟ بِبَعْضِ مَآ ءَاتَيْتُمُوهُنَّ إِلَّآ أَن يَأْتِينَ بِفَـٰحِشَةٍ مُّبَيِّنَةٍ ۚ وَعَاشِرُوهُنَّ بِٱلْمَعْرُوفِ ۚ فَإِن كَرِهْتُمُوهُنَّ فَعَسَىٰٓ أَن تَكْرَهُوا۟ شَيْـًٔا وَيَجْعَلَ ٱللَّهُ فِيهِ خَيْرًا كَثِيرًا ﴿١٩﴾ وَإِنْ أَرَدتُّمُ

(1) في ظلال القرآن: الأستاذ سيد قطب، ط 12، (دار الشروق 1406/1986) (1ص604).

ٱسْتِبْدَالَ زَوْجٍ مَّكَانَ زَوْجٍ وَءَاتَيْتُمْ إِحْدَىٰهُنَّ قِنطَارًا فَلَا تَأْخُذُوا۟ مِنْهُ شَيْـًٔا ۚ أَتَأْخُذُونَهُۥ بُهْتَـٰنًا وَإِثْمًا مُّبِينًا ﴿٢٠﴾ وَكَيْفَ تَأْخُذُونَهُۥ وَقَدْ أَفْضَىٰ بَعْضُكُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ وَأَخَذْنَ مِنكُم مِّيثَـٰقًا غَلِيظًا ﴿٢١﴾ وَلَا تَنكِحُوا۟ مَا نَكَحَ ءَابَآؤُكُم مِّنَ ٱلنِّسَآءِ إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ فَـٰحِشَةً وَمَقْتًا وَسَآءَ سَبِيلًا ﴾ [النساء:19- 22]..

كان بعضهم فى الجاهلية العربية - قبل أن ينتشل الإسلام العرب من هذه الوهدة ويرفعهم إلى مستواه الكريم - إذا مات الرجل منهم فأولياؤه أحق بامرأته، يرثونها كما يرثون البهائم والمتروكات! إن شاء بعضهم تزوجها، وإن شاءوا زوجوها وأخذوا مهرها - كما يبيعون البهائم والمتروكات! - وإن شاءوا عضلوها وأمسكوها فى البيت دون تزويج؛ حتى تفتدى نفسها بشيء..

وكان بعضهم إذا توفى عن المرأة زوجها جاء وليه فألقى عليها ثوبه فمنعها من الناس، وحازها كما يحوز السلب والغنيمة! فإن كانت جميلة تزوجها; وإن كانت دميمة حبسها حتى تموت فيرثها أو تفتدى نفسها منه بمال! فأما إذا فاتته فانطلقت إلى بيت أهلها قبل أن يدركها فيلقى عليها ثوبه، فقد نجت وتحررت وحمت نفسها منه!

وكان بعضهم يطلق المرأة، ويشترط عليها ألا تنكح إلا من أراد؛ حتى تفتدى نفسها منه بما كان أعطاها.. كله أو بعضه!

وكان بعضهم إذا مات الرجل حبسوا امرأته على الصبى فيهم حتى يكبر فيأخذها!

وكان الرجل تكون اليتيمة فى حجره يلى أمرها، فيحبسها عن الزواج حتى يكبر ابنه الصغير ليتزوجها ويأخذ مالها!

وهكذا. وهكذا. مما لا يتفق مع النظرة الكريمة التى ينظر بها الإسلام لشقى النفس الواحدة؛ ومما يهبط بإنسانية المرأة وإنسانية الرجل على السواء.. ويحيل العلاقة بين الجنسين علاقة تجار، أو علاقة بهائم!

ومن هذا الدرك الهابط رفع الإسلام تلك العلاقة إلى ذلك المستوى العالى الكريم اللائق بكرامة بنى آدم الذين كرمهم الله وفضلهم على كثير من العالمين. فمن فكرة الإسلام عن الإنسان، ومن نظرة الإسلام إلى الحياة الإنسانية، كان ذلك الارتفاع الذى لم تعرفه البشرية إلا من هذا المصدر الكريم.

حرم الإسلام وراثة المرأة كما تورث السلعة والبهيمة، كما حرم العضل الذى تسامه المرأة، ويتخذ أداة للإضرار بها - إلا فى حالة الإتيان بالفاحشة، وذلك قبل أن يتقرر حد الزنا المعروف - وجعل للمرأة حريتها فى اختيار من تعاشره ابتداء أو استئنافًا، بكرًا أم ثيبًا، مطلقة أو متوفى عنها زوجها، وجعل العشرة بالمعروف فريضة على الرجال - حتى فى حالة كراهية الزوج لزوجته ما لم تصبح العشرة متعذرة - ونسم فى هذه الحالة نسمة الرجاء فى غيب الله وفى علم الله. كى لا يطاوع المرء انفعاله الأول؛ فيبت وشيجة الزوجية العزيزة، فما يدريه أن هنالك خيرًا فيما يكره، هو لا يدريه. خيرًا مخبوءًا كامنًا، لعله إن كظم انفعاله واستبقى زوجه سيلاقيه:

﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا يَحِلُّ لَكُمْ أَن تَرِثُواْ ٱلنِّسَآءَ كَرْهًا ۖ وَلَا تَعْضُلُوهُنَّ لِتَذْهَبُواْ بِبَعْضِ مَآ ءَاتَيْتُمُوهُنَّ إِلَّآ أَن يَأْتِينَ بِفَـٰحِشَةٍ مُّبَيِّنَةٍ ۚ وَعَاشِرُوهُنَّ بِٱلْمَعْرُوفِ ۚ فَإِن كَرِهْتُمُوهُنَّ فَعَسَىٰٓ أَن تَكْرَهُواْ شَيْـًٔا وَيَجْعَلَ ٱللَّهُ فِيهِ خَيْرًا كَثِيرًا﴾ [النساء:19].

وهذه اللمسة الأخيرة فى الآية تعلق النفس بالله، وتهدئ من فورة الغضب، وتفثأ[1] من حدة الكره، حتى يعاود الإنسان نفسه فى هدوء؛ وحتى لا تكون العلاقة الزوجية ريشة فى مهب الرياح؛ فهى مربوطة العرى بالعروة الوثقى، العروة الدائمة، العروة التى تربط بين قلب المؤمن وربه وهى أوثق العرى وأبقاها.

والإسلام الذى ينظر إلى البيت بوصفه سكنًا وأمنًا وسلامًا، وينظر إلى العلاقة بين الزوجين بوصفها مودة ورحمة وأنسًا، ويقيم هذه الآصرة على الاختيار المطلق؛

(1) تفثأ: تسكن، وتخف.

كى تقوم على التجاوب والتعاطف والتحاب.. هو الإسلام ذاته الذى يقول للأزواج: ﴿ فَإِن كَرِهْتُمُوهُنَّ فَعَسَىٰٓ أَن تَكْرَهُوا۟ شَيْـًٔا وَيَجْعَلَ ٱللَّهُ فِيهِ خَيْرًا كَثِيرًا ﴾ [النساء:19].. كى يستأنى بعقدة الزوجية فلا تفصم لأول خاطر وكى يستمسك بعقدة الزوجية فلا تنفك لأول نزوة، وكى يحفظ لهذه المؤسسة الإنسانية الكبرى جديتها، فلا يجعلها عرضة لنزوة العاطفة المتقلبة، وحماقة الميل الطائر هنا وهناك.

وما أعظم قول عمر بن الخطاب رضى الله عنه لرجل أراد أن يطلق زوجه «لأنه لايحبها».. «ويحك! ألم تبن البيوت إلا على الحب؟ فأين الرعاية وأين التذمم؟»..

وما أتفه الكلام الرخيص الذى ينعق به المتحذلقون باسم « الحب » وهم يعنون به نزوة العاطفة المتقلبة، ويبيحون باسمه - لا انفصال الزوجين وتحطيم المؤسسة الزوجية - بل خيانة الزوجة لزوجها! أليست لا تحبه؟! وخيانة الزوج لزوجته! أليس أنه لا يحبها؟!

وما يهجس فى هذه النفوس التافهة الصغيرة معنى أكبر من نزوة العاطفة الصغيرة المتقلبة، ونزوة الميل الحيوانى المسعور. ومن المؤكد أنه لا يخطر لهم أن فى الحياة من المروءة والنبل والتجمل والاحتمال ما هو أكبر وأعظم من هذا الذى يتشدقون به فى تصور هابط هزيل.. ومن المؤكد طبعًا أنه لا يخطر لهم خاطر.. الله.. فهم بعيدون عنه فى جاهليتهم المزوّقة! فما تستشعر قلوبهم ما يقوله الله للمؤمنين: ﴿فَإِن كَرِهْتُمُوهُنَّ فَعَسَىٰٓ أَن تَكْرَهُوا۟ شَيْـًٔا وَيَجْعَلَ ٱللَّهُ فِيهِ خَيْرًا كَثِيرًا﴾ [النساء:19]..

إن العقيدة الإيمانية هى وحدها التى ترفع النفوس، وترفع الاهتمامات، وترفع الحياة الإنسانية عن نزوة البهيمة، وطمع التاجر، وتفاهة الفارغ!

فإذا تبين بعد الصبر والتجمل والمحاولة والرجاء؛ أن الحياة غير مستطاعة، وأنه لا بد من الانفصال واستبدال زوج مكان زوج؛ فعندئذ تنطلق المرأة بما أخذت من

صداق وما ورثت من مال، لا يجوز استرداد شيء منه، ولو كان قنطارًا من ذهب. فأخذ شيء منه إثم واضح، ومنكر لا شبهة فيه:

﴿وَإِنْ أَرَدتُّمُ ٱسْتِبْدَالَ زَوْجٍ مَّكَانَ زَوْجٍ وَءَاتَيْتُمْ إِحْدَىٰهُنَّ قِنطَارًا فَلَا تَأْخُذُوا۟ مِنْهُ شَيْـًٔا ۚ أَتَأْخُذُونَهُۥ بُهْتَـٰنًا وَإِثْمًا مُّبِينًا﴾ [النساء:20].

ومن ثمّ لمسة وجدانية عميقة، وظل من ظلال الحياة الزوجية وريف، في تعبير موح عجيب:

﴿وَكَيْفَ تَأْخُذُونَهُۥ وَقَدْ أَفْضَىٰ بَعْضُكُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ وَأَخَذْنَ مِنكُم مِّيثَـٰقًا غَلِيظًا﴾ [النساء:21]

ويدع الفعل: ﴿أَفْضَىٰ﴾ بلا مفعول محدد، يدع اللفظ مطلقًا يشع كل معانيه، ويلقى كل ظلاله ويسكب كل إيحاءاته. ولا يقف عند حدود الجسد وإفضاءاته، بل يشمل العواطف والمشاعر، والوجدانات والتصورات، والأسرار والهموم، والتجاوب في كل صورة من صور التجاوب. يدع اللفظ يرسم عشرات الصور لتلك الحياة المشتركة آناء الليل وأطراف النهار، وعشرات الذكريات لتلك المؤسسة التي ضمتها فترة من الزمان.. وفي كل اختلاجة حب إفضاء، وفي كل نظرة ود إفضاء، وفي كل لمسة جسم إفضاء، وفي كل اشتراك في ألم أو أمل إفضاء. وفي كل تفكر في حاضر أو مستقبل إفضاء، وفي كل شوق إلى خلف إفضاء، وفي كل التقاء في وليد إفضاء..

كل هذا الحشد من التصورات والظلال والأنداء والمشاعر والعواطف يرسمه ذلك التعبير الموحي العجيب: ﴿وَقَدْ أَفْضَىٰ بَعْضُكُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ﴾.. فيتضاءل إلى جواره ذلك المعنى المادي الصغير، ويخجل الرجل أن يطلب بعض ما دفع، وهو يستعرض في خياله وفي وجدانه ذلك الحشد من صور الماضي، وذكريات العشرة في لحظة الفراق الأسيف!

ثم يضم إلى ذلك الحشد من الصور والذكريات والمشاعر عـاملًا آخـر مـن لـون آخر: ﴿وَأَخَذْنَ مِنكُم مِّيثَٰقًا غَلِيظًا﴾

هو ميثاق النكاح، باسم الله، وعلى سنة الله.. وهو ميثاق غليظ لا يستهين بحرمته قلب مؤمن؛ وهو يخاطب الذين آمنوا، ويدعوهم بهذه الصفة أن يحترموا هذا الميثاق الغليظ.

* * *

الشبهة الخامسة
لماذا منع رسول الله على بن أبى طالب من الزواج على فاطمة؟

لو كان التعدد مباحًا؛ ما منع رسول الله ﷺ على بن أبى طالب رضى الله عنه من الزواج على فاطمة رضى الله عنها.

الجواب على هذه الشبهة:

أولًا: لابد من استعراض الروايات فى قصة فاطمة رضى الله عنها، وقد بلغت طرق الحديث أكثر من ستين طريقًا:

1- حديث المسور بن مخرمة رضى الله عنه قال:

إن عليًا كرم الله وجهه خطب بنت أبى جهل، فسمعت بذلك فاطمة، فأتت رسول الله ﷺ، فقالت: يزعم قومك أنك لا تغضب لبناتك، وهذا على ناكح بنت أبى جهل، فقام رسول الله ﷺ فسمعته حين تشهد يقول:

« أَمَّا بَعْدُ.... أَنْكَحْتُ أَبَا الْعَاصِ بْنَ الرَّبِيعِ فَحَدَّثَنِى وَصَدَقَنِى، وَإِنَّ فَاطِمَةَ بَضْعَةٌ – قطعة – مِنِّى وَإِنِّى أَكْرَهُ أَنْ يَسُوؤهَا وَالله لَا تَجْتَمِعُ بِنْتُ رَسُولِ اللهِ (صَلَّى الله عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) وَبِنْتُ عَدُوِّ الله عِنْدَ رَجُلٍ وَاحِدٍ، فَتَرَكَ عَلِى الْخِطْبَةَ»[1].

2- ورُوى عن المسور أيضًا أنه سمع رسول الله ﷺ على المنبر وهو يقول:

(1) رواه البخارى كتاب فضائل أصحاب النبى ﷺ، باب ذكر أصهار النبى ﷺ، الحديث رقم (3729).

«إِنَّ بَنِى هِشَامِ بْنِ الْمُغِيرَةِ اسْتَأْذَنُونِى أَنْ يُنْكِحُوا ابْنَتَهُمْ عَلِى بْنَ أَبِى طَالِبٍ فَلَا آذَنُ لَهُمْ ثُمَّ لَا آذَنُ لَهُمْ ثُمَّ لَا آذَنُ لَهُمْ إِلَّا أَنْ يُحِبَّ ابْنُ أَبِى طَالِبٍ أَنْ يُطَلِّقَ ابْنَتِى وَيَنْكِحَ ابْنَتَهُمْ فَإِنَّمَا ابْنَتِى بَضْعَةٌ مِنِّى يَرِيبُنِى مَا رَابَهَا وَيُؤْذِينِى مَا آذَاهَا» زاد فى رواية «إِنَّ فَاطِمَةَ مِنِّى وَإِنِّى أَتَخَوَّفُ أَنْ تُفْتَنَ فِى دِينِهَا»، قال ثم ذكر صهرًا له (أبو العاص بن الربيع) من بنى عبد شمس، فأثنى عليه فى مصاهرته إياه فأحسن،» قال:

«حَدَّثَنِى فَصَدَقَنِى وَوَعَدَنِى فَأَوْفَى لِى وَإِنِّى لَسْتُ أُحَرِّمُ حَلَالًا وَلَا أُحِلُّ حَرَامًا وَلَكِنْ وَاللَّهِ لَا تَجْتَمِعُ بِنْتُ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَبِنْتُ عَدُوِّ اللَّهِ مَكَانًا وَاحِدًا أَبَدًا»[1].

ثانيًا: إن المتأمل فى تلك الروايات يدرك ما يلى:

1- أن الرجل إذا اشترط لزوجته أن لا يتزوج عليها؛ لزم الوفاء بالشرط، ومتى تزوج عليها فلها الفسخ.

ووجه تضمن الحديث لذلك، أنه ﷺ أخبر أن ذلك يؤذى فاطمة رضى الله عنها ويريبها وأنه يؤذيه ﷺ ويريبه ومعلوم قطعًا أنه ﷺ إنما زوجه فاطمة رضى الله عنها على أن لا يؤذيها ولا يريبها ولا يؤذى أباها ﷺ ولا يريبه....

وفى ذكره ﷺ صهره الآخر -أبا العاص بن الربيع- وثناءه عليه بأنه حدثه فصدقه ووعده فوفى له تعريض بعلىّ أم الله وجهه وتهييج له على الاقتداء به وهذا يشعر بأنه قد جرى منه وعد له بأنه لا يريبها ولا يؤذيها، فهيجه على الوفاء له، كما وفّى له صهره الآخر[2].

- ولعله كان شرط على نفسه أن لا يتزوج على زينب، وكذلك عَلِىٌّ، فإن لم يكن كذلك فهو محمول على أن عليًّا نسى ذلك الشرط، فلذلك أقدم على الخطبة...

(1) رواه مسلم كتاب فضائل الصحابة ن، باب من فضائل فاطمة بنت النبى ﷺ الحديث رقم (2449)..
- ما رابك من شىء: خفت عقباه، وأرابني: شككنى وأوهمنى، وفى رواية: «وأنا أكره أن يسوؤها».
(2) راجع: زاد المعاد لابن القيم، (القاهرة المطبعة المصرية ومكتبتها)، (7/4، 8).

- وكانت هذه الواقعة بعد فتح مكة. ولم يكن حينئذٍ تأخر من بنات النبى ﷺ غيرها، وكانت قد أصيبت بعد أمها بأخواتها، فكان إدخال الغيرة عليها مما يزيد حزنها[1].

2- كما أن الإسلام قيد التعدد بالقدرة على الإنفاق، وتحرى العدل بين الزوجات، وقصره على أربع، فقد جعل من حق المرأة أو وليها، أن يشترط ألا يتزوج الرجل عليها، فلو شرطت الزوجة فى عقد الزواج على زوجها ألا يتزوج عليها، صح الشرط ولزم، وكان لها حق فسخ الزواج، إذا لم يف لها بالشرط، ولا يسقط حقها فى الفسخ إلا إذا أسقطته ورضيت بمخالفته.

وإلى هذا ذهب الإمام أحمد ورجَّحه ابن تيمية وابن القيم، إذ الشروط فى الزواج أكبر خطرًا فى البيع والإجارة ونحوهما، فلهذا يكون الوفاء بما التزم منها أوجب وآكد[2][3].

واستدلوا لمذهبهم هذا بما يأتى:

- قول النبى ﷺ: «**أَحَقُّ مَا أَوْفَيْتُمْ مِنَ الشُّرُوطِ أَنْ تُوفُوا بِهِ مَا اسْتَحْلَلْتُمْ بِهِ الْفُرُوجَ**»، وفى لفظ: «**إِنَّ أَحَقَّ الشُّرُوطِ أَنْ يُوَفَّى بِهِ مَا اسْتَحْلَلْتُمْ بِهِ الْفُرُوجَ**» متفق عليه.

- إنه مذهب عمر بن الخطاب، وسعد بن أبى وقاص، ومعاوية، وعمرو بن العاص رضى الله عنهم، ولا نعلم لهم مخالفًا فى عصرهم، فكان هذا إجماعًا وبه قال عمر بن عبد العزيز وجابر بن زيد وطاوس والأوزاعى وإسحاق.

- ولأنه شرط لها فيه منفعة ومقصود، لا يمنع المقصود من النكاح فكان لازمًا.

---

(1) فتح البارى (14 ص233).

(2) فقه السنة: (2 ص100).

(3) المغنى لابن قدامة: (9 ص ص483-485).

3- ليس فى الحديث إلا الوفاء بالشرط، وليس هذا لفاطمة وحدها، وإنما حق لكل امرأة أن تشترط، وليس فى هذا الشرط تحريم الحلال، فقد جاء صريحًا فى الحديث: «**وَإِنِّى لَسْتُ أُحَرِّمُ حَلاَلاً وَلاَ أُحِلُّ حَرَامًا**» بل كان الرسول الكريم الغيور على ابنته منصفًا إلى أبعد درجة رغم هذا الأذى، حين لم يمنع عليًّا من الزواج بأخرى على أن يطلق فاطمة فلا تجتمع فاطمة بنت محمد مع بنت أبى جهل فى مكان واحد، فهذا الشرط لا يحرم حلالاً وإنما يثبت للمرأة خيار الفسخ إن لم يف لها به، والمشروط عرفًا، كالمشروط لفظًا، فلو فرض عادة قوم أنهم لايتزوجون على نسائهم، وعادتهم مستمرة بذلك كان كالمشروط لفظًا وهذا مطرد على قواعد أهل المدينة.

4- استدل البعض بهذا الحديث على قوله: (بسد الذريعة) لأن تزويج ما زاد على الواحدة حلال للرجال ما لم يجاوز الأربع، ومع ذلك فقد منع من ذلك فى الحال لما يترتب عليه من الضرر فى المآل[1].

وقد جاء فى الحديث ما يظهر هذا الضرر بقوله ﷺ:

«**يَرِيبُنِى مَا رَابَهَا وَيُؤْذِينِى مَا آذَاهَا**»، «**وَإِنِّى أَتَخَوَّفُ أَنْ تُفْتَنَ فِى دِينِهَا**» يعنى: أنها لا تصبر على الغيرة، فيقع منها فى حق زوجها فى حال الغضب ما لا يليق بحالها فى الدين «**وأنا أكره أن يسوؤها**»«**أن يفتنوها**» «**يُغْضِبُنِى مَا أَغْضَبَهَا وَيُبْسِطُنِى مَا يُبْسِطُهَا**».

ويؤخذ من هذا أن فاطمة لو رضيت بذلك لم يمنع على من التزويج بها، أو بغيرها، فالخيار لها، فماذا يبقى من شبهة لأهل البدع وأصحاب الأهواء؟!!

وماذا بعد هذا من الملاطفة وتطييب القلوب وجبر الخواطر؟!!

(1) فتح البارى (19 ص393).

الشبهة الأخيرة

تعدد الزوجات للرسول دليل على شهوانيته وميله للنساء

حاول بعض المستشرقين النيل من شخصية رسول الله ﷺ ووصفه بما لا يليق من الانغماس فى الشهوات والميل إلى النساء معتمدًا على كثرة أزواج النبى ﷺ[1].

ولقد تصدى علماء الإسلام لتلك المحاولة الضالة وأبرزوا الحقائق التالية[2]:-

1- الواقع أن حياة النبى ﷺ لا تسمح مطلقًا بأن يدعى مدع أنه كان يتزوج للشهوة، فهو قد تزوج خديجة رضى الله عنها وهو فى الخامسة والعشرين، وهى فى الأربعين، واستمر يعاشرها وحدها إلى أن تجاوزت الخامسة والستين بل قاربت السبعين، ومع ذلك لم يفكر فى أن يتزوج عليها، ولا فى أن يتخذ أمة بجوارها، وماتت وهو ﷺ فوق الخمسين، ولم يجرؤ أحد من أشد خصومه لددًا أن ينسب إليه دنسًا أو يتهمه بريبة فى هذه الفترة الخصيبة الرحبة من عمر الإنسان، كان رونق العفاف والشرف يتألق فى جبينه حيث سار، ولو أنه أحب التزوج بأخرى ما كان هناك مانع من شرع أو عقل أو عادة؛ إلا أنه ظل مكتفيًا بمن استراح إليها، واطمأن بصحبتها، ولو أنها طغت فى السن وبقى هو فى كمال قوته، وتمام رجولته، ولهذا المسلك دلالته القاطعة.

2- إن الرسول عليه الصلاة والسلام لم يَشرع فى زواجه الثانى إلا وقد بلغ الخامسة والخمسين، وإذا أخذنا فى اعتبارنا مشاغله وانشغالاته وأعباءه وهمومه

(1) حياة محمد: إميل در منغم ص 49، 262، جوستاف لوبون: حضارة العرب ص 112.

(2) قمم إسلامية: أبو زهرة 1 ص157، فقه السيرة: محمد الغزالى ص 495، مدخل إلى القرآن الكريم ص 153، رسائل الإصلاح 2 ص215.

المختلفة العامة منها والخاصة؛ مثل إقامة الصلوات الخمس منذ الفجر حتى العشاء، وتعليم القرآن، وتوزيع الصدقات، والفصل فى المنازعات، ومقابلة الوفود ومراسلة الملوك والحكام، وقيادة المعارك العسكرية، وتأسيس الدولة... إلخ

فكانت أعماله وهو فى المدينة أضعاف أعماله وهو فى مكة، ثم بعد ذلك قيام الليل راكعًا أو ساجدًا أو قائمًا، حتى تتورم قدماه كل هذا يثبت أن تقوىٰ الرسول وورعه واستقامته كانت تزيد وتقوىٰ فى المدينة بدلًا من أن تنقص، ويدعونا إلى الاعتقاد بأن الباعث الحقيقى على الزواج هو شيء آخر بعيد كل البعد عن إرضاء الغريزة الجنسية.

أين مكان المتعة فى حياة رجل لم يسترح يومًا من عناء الكفاح؟

ما مكان المتعة فى حياة رجل عزف عنها وهو شاب فكيف يغرق فيها وهو شيخ؟

لنفترض جدلاً أنه تزوج من أجل الجمال، فهل عرف طعم الراحة فى حياته؛ ليتقلب فى أحضان النساء؟ ألم يقرأ من يتخيل تلك الحياة الناعمة للنبى الخاتم، كيف ضاقت زوجات الرسول بتلك الحياة، وطالبن الرسول بالتوسعة عليهن، فنزلت آية التخيير ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ قُل لِّأَزْوَٰجِكَ إِن كُنتُنَّ تُرِدْنَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا وَزِينَتَهَا فَتَعَالَيْنَ أُمَتِّعْكُنَّ وَأُسَرِّحْكُنَّ سَرَاحًا جَمِيلًا ﴿٢٨﴾ وَإِن كُنتُنَّ تُرِدْنَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَٱلدَّارَ ٱلْءَاخِرَةَ فَإِنَّ ٱللَّهَ أَعَدَّ لِلْمُحْسِنَٰتِ مِنكُنَّ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿٢٩﴾ ﴾ [الأحزاب: 28، 29].

ما الذى يفعله الرجل الشهوانى الغارق فى لذات الجسد إذا بلغ من المكانة والسلطان ما بلغه سيدنا محمد ﷺ بين قومه؟

لم يكن عسيرًا عليه أن يجمع إليه أجمل بنات العرب، وأفتن جوارى الفرس والروم؟ ولم يكن عسيرًا عليه أن يوفر لنفسه ولأهله من الطعام والشراب والكساء

والزينة ما لم يتوفر لسيد من سادات الجزيرة فى زمانه، فهل فعل محمد ﷺ ذلك بعد نجاحه؟ هل فعل ذلك فى مطلع حياته؟ إنه جمع مجموعة من الأرامل المنكسرات، لم يتزوج عذراء إلا عائشة؛ لأنها بنت صديقه وخليفته من بعده؟

3- إن المتقصى لأزواج النبى ﷺ لا يجد عسرًا فى تعرف سبب زواجه، فإنه ما من زوجة تزوجها بعد خديجة ووجد هناك دليل على أنه رغب فيها رغبة شهوانية فمثلًا: أول زوجة تزوجها بعد خديجة كانت سودة بنت زمعة، وكانت أكبر من خديجة سنًّا أو فى مثل سنها، ولم تكن ذات جمال كخديجة، فشيخوخة وفقد جمال لايمكن أن يكون الزواج منها لشهوة؛ إنما تزوجها لأنها تأيمت -مات زوجها- فخشى النبى أن تعود لأهلها، وأهلها مشركون، فحماها من أن تعود إلى الشرك بهذا الزواج.

وتزوج النبى ﷺ عائشة، وعقد عليها وهى بنت سبع أو ست، ودخل بها وهى بنت تسع، وكانت فتاة ضعيفة البنية، ولا يمكن أن يكون مثلها يشتهىٰ؟

وتزوج بحفصة على قلة وسامتها... حيث كان الباعث الأول هو الارتباط بالرجال الذين آزروه فى دعوته، وعاونوه فى رسالته ولا سيما خليفتيه: أبى بكر وعمر.

واختار أم سلمة أرملة قائده الذى استشهد فى سبيل الله، وعانت معه امرأته ما عانت فى الهجرة إلى الحبشة، وفى الهجرة إلى المدينة، وهى امرأة ذات عيال، فكفلهم الحبيب النبى محمد ﷺ.

وأم حبيبة تزوجها؛ لأن زوجها تنصَّر وهى مسلمة، فإما أن تعود إلى أبيها أبى سفيان زعيم الشرك إذ ذاك، وإما أن تعود إلى المسلمين من غير من يأويها؛ فأرسل النبى ﷺ إلى النجاشى يوكله فى أن يزوجه من أم حبيبة، فكان النجاشى وكيله، فجاءت إلى المدينة مكرمة زوجًا للنبى ﷺ بدلًا من أن تذهب إلى مكة مشركة مرتدة عن الإسلام كأبيها، وكان لهذا أثر حسن فى قلب أبى سفيان.

وصفية تزوجها لأنه لم يرد أن يفرض رقًّا على قبيلتها، فجاء كل صحابى فى يده إحدى سبايا قبيلتها وأطلقها وهو يقول: كيف أسترق أصهار رسول الله ﷺ؟

كما كان فى زواجه جبر لخالها حيث هلك أبوها وأخوها وزوجها.

وجويرية هزم أبوها زعيم بنى المصطلق هزيمة نكراء، وكادت قبيلته تهون وتذل عقب هذه الهزيمة، فواسى النبى القائدَ المهزوم، ثم أصهر إليه حتى يشعر المسلمون بما ينبغى لأتباعه من كرامة ومعونة، وقد وقع ما أحبه النبى ﷺ فعادت الحرية إلى القبيلة رجالًا ونساءً، إذ تحرج المسلمون أن يسبوا إلى قوم تزوج النبى ﷺ ابنتهم.

أما زواجه بزينب - حجة الزاعمين أن زواجه شهوة -: فإن الباعث الحقيقى عليه هو أن العرب كانوا يتحفظون من أن يتزوجوا نساء أدعيائهم، فأراد الله أن يبتدئ النبى بإزالة هذا التحفظ ليكون أسوة حسنة لغيره، وأن يقضى على المماثلة بين الابن المتبنىٰ، والابن الشرعى.

ومن الجدير بالذكر، أن هذا الزواج كان امتحانًا قاسيًا لرسول الله ﷺ أمره الله به؛ لإبطال ذلك التقليد الشائع عند العرب (التبنى)، وأقدم عليه الرسول ﷺ وهو شديد التحرج والأذى، وعاتبه الله فيه؛ لأنه أخفى فى نفسه ما الله مبديه..

إن زينب من قريبات الرسول ﷺ فهو يعرفها حق المعرفة من طفولتها، وقد رغب فى أن يزوجها من "زيد بن حارثة" متبناه، وكرهت زينب ذلك إلا أنها لم تجد بدًّا من الانصياع لأمر النبى ﷺ.

ودخل زيد بزينب فوجد امرأة مصروفة الفؤاد عنه، فاستحالت الحياة الزوجية بينهما، وتدخل النبى بين الحين والحين لإصلاح ذات البين، حتى كان وحى الله له بأن يدع زيدًا يطلق زينب ويتزوجها هو، فاعترىٰ الرسول هَم مقلق لهذا الأمر الغريب ماذا سيقول الناس؟

تزوج امرأة ابنه... وهى لا تحل؟

ولكن هذا الذى سيقول الناس هو ما أراد الله هدمه، وقد تريث النبى فى إنفاذ أمر الله لعل الله يعفيه منه، بل ذهب إلى أبعد من ذلك، فعندما جاء زيد يشكو امرأته ويعرض نيته فى تطليقها قال له النبى ﷺ: «أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ وَاتَّقِ اللهَ» عند ذلك نزل الوحى يلوم الرسول على توقفه، ويعتب عليه تصرفه، وقد وردت هذه الزيجة الوحيدة فى كتاب الله تعالى: ﴿ وَإِذْ تَقُولُ لِلَّذِىٓ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَأَنْعَمْتَ عَلَيْهِ أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ وَٱتَّقِ ٱللَّهَ وَتُخْفِى فِى نَفْسِكَ مَا ٱللَّهُ مُبْدِيهِ وَتَخْشَى ٱلنَّاسَ وَٱللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخْشَىٰهُ فَلَمَّا قَضَىٰ زَيْدٌ مِّنْهَا وَطَرًا زَوَّجْنَـٰكَهَا لِكَىْ لَا يَكُونَ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ حَرَجٌ فِىٓ أَزْوَٰجِ أَدْعِيَآئِهِمْ إِذَا قَضَوْا۟ مِنْهُنَّ وَطَرًا وَكَانَ أَمْرُ ٱللَّهِ مَفْعُولًا...﴾ [الأحزاب:37 -40].

إن الظروف التى عقدت فيها زيجات الرسول ﷺ فرضت عليه لاعتبارات إنسانية سامية، مثل مواساة وتشريف زوجة شهيد، أو مهاجر مات بين أصحابه فى هجرته، أو توثيق بعض الروابط القبلية، أو إيجاد جو مناسب لعتق أسرى قبيلة بأكملها، أو لضرورة تشريعية... ويضيف الحافظ ابن حجر وجوهًا تبين حكمة تعدد أزواج رسول الله ﷺ منها[1]:

1- أن يكثر من يشاهد أحواله الباطنة؛ فينتفى عنه ما يظن به المشركون من أنه ساحر.

2- نقل الأحكام الشرعية التى لا يطلع عليها الرجال.

3- لتكثر عشيرته من جهة نسائه فتزداد أعوانه على من يحاربه.

وهكذا نجد فى كل زواج حكمة إنسانية أو اجتماعية أو تشريعية واضحة..

قد يقول قائل: لماذا لم يلتزم رسول الله بالجمع بين أربع نساء كسائر المسلمين؟ ألم يأمر مَنْ جمع بين أكثر من أربع أن يفارق ما زاد على أربع؟ والجواب من وجوه:

(1) راجع: فتح البارى لابن حجر: (138/19).

أولًا: يختلف حال المسلمين عن حال رسول الله ﷺ، فالنسوة اللاتى يتزوجن لهن الحق فى الزواج إذا طلقن، أو مات عنهن أزواجهن من المسلمين.

أما أمهات المؤمنين نساء النبى، فليس لهن هذا الحق مطلقًا.

قال تعالى: ﴿ٱلنَّبِيُّ أَوْلَىٰ بِٱلْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنفُسِهِمْ ۖ وَأَزْوَٰجُهُۥٓ أُمَّهَٰتُهُمْ ۗ﴾ [الأحزاب: 6].

فلا يجوز لأحد أن يتزوج أمه!

وقال تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لَكُمْ أَن تُؤْذُوا۟ رَسُولَ ٱللَّهِ وَلَآ أَن تَنكِحُوٓا۟ أَزْوَٰجَهُۥ مِنۢ بَعْدِهِۦٓ أَبَدًا ۚ إِنَّ ذَٰلِكُمْ كَانَ عِندَ ٱللَّهِ عَظِيمًا﴾ [الأحزاب: 53].

ثانيًا: هل من الوفاء أن يطلق رسول الله ﷺ ما زاد على الأربع، وقد تحمل نساؤه معه تلك الحياة القاسية، واخترن البقاء معه، وآثرن رسول الله ﷺ على آبائهن وأمهاتهن والدنيا كلها؟

ثالثًا: لقد صدر تشريع خاصٌّ يحرم على رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم أن يتزوج على نسائه تكريمًا لهن، ورضاً عنهن على حسن صنيعهن فى اختيار الله ورسوله والدار الآخرة لَمَّا خيرهن رسول الله، فلما اخترن رسول الله، كان جزاؤهن أن الله تعالى قصره عليهن، وحرم عليه أن يتزوج بغيرهن، أو يستبدل بهن أزواجًا غيرهن، ولو أعجبه حسنهن إلا الإماء، فلا حرج عليه فيهن وموضوع الإماء سنفرد له بحثًا مستقلًا إن شاء الله تعالى، وفى هذا المعنى نزل قوله تعالى: ﴿لَّا يَحِلُّ لَكَ ٱلنِّسَآءُ مِنۢ بَعْدُ وَلَآ أَن تَبَدَّلَ بِهِنَّ مِنْ أَزْوَٰجٍ وَلَوْ أَعْجَبَكَ حُسْنُهُنَّ إِلَّا مَا مَلَكَتْ يَمِينُكَ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ رَّقِيبًا﴾ [الأحزاب: 52].

رابعًا: إن ما تعرض له رسول الإسلام ليس غريبًا أن يتعرض له، فى ظل ماتعرض له الرسل السابقون من إساءات بالغة فى هذا الشأن، ونحن نتساءل:

مَنْ يتهم محمدًا؟

- إن كان صاحب دين، فليتأمل دينه إن كان يهوديًّا أو نصرانيًّا مثلًا ماذا سطر الكتاب المقدس عن الأنبياء بما لا يتناسب مع مكانتهم وعصمتهم؟!.
- ماذا نسبوا لسيدنا لوط وسيدنا داود، وسيدنا سليمان، وغيرهم؟
- وإن لم يكن صاحب دين، فليتأمل المسيرة الإنسانية.
- وليقرأ تاريخ اليونان والرومان والفرس والهند، وليتأمل حضارته المعاصرة بما فيها من شذوذ ولواط، وحرية الجسد الأنثوى، هل يقبل من الذين ابتلاهم الله بالإيدز والزهرى والسيلان شهادة فى محمد بن عبد الله؟!.

خامسًا: هل وعى التاريخ الإنسانى الصحيح سيرة رجال، كسيرة الأنبياء والمرسلين، وهل انفرد واحد بمثل ما انفرد به نبى الإسلام الخاتم؟

- إن الحديث عن أى واحد من الأنبياء إنما هو حديث عن رجل يعد أعف الناس خلقًا، وأطهرهم ثوبًا، وأنقاهم قلبًا، وأزكاهم سيرة، وأتقاهم سريرة، هل حكى عن احتفالات فى بيوتهم، رصدت فيها موائد الطعام، وعليها زجاجات الخمور مع أنغام الموسيقى والأجسام العارية؟!!
- إن نبى الإسلام قد أثَّرت الحصير على جسده، ومات وما شبع من خبز الشعير يومين متتابعين، وكان الهلال والهلال والهلال -ثلاثة أهلة- وما يوقد فى بيوت رسول الله ﷺ نار، لقد بكى أصحاب رسول الله ﷺ من حال النبى ﷺ حين قارنوه بحال ملوك كسرى، والروم هؤلاء الذين عُجلت لهم طيباتهم فى حياتهم الدنيا.
- فهل هذا النبى المخشوشن الصابر المحتسب المجاهد يُوصف بأنه من أصحاب الشهوات؟ ومن الذى يصفه ويتهمه الذين ابتلاهم الله بالإيدز، والذين حرفوا الكلم عن مواضعه!!!

ونستطيع أن نقول بكل ثقة: إن النبى ﷺ لم يتزوج كما نتزوج نحن، وإنما اختار الله له زوجاته اللائى نِلن شرف أمهات المؤمنين، وفى هذا المعنى يقول ربنا: ﴿زَوَّجْنَكَهَا﴾ [الأحزاب:37] كما جاء فى زواجه بالسيدة زينب رضى الله عنها.

والعجيب أنها أكبر قضية نالت اهتمام المستشرقين، لذا فمن الواجب أن نترك لها مساحة مناسبة، ولم أجد خيرًا ممن دافع عن رسول الإسلام من الأستاذ الدكتور الراحل/ " نظمى لوقا"، العالم المسيحى المصرى الذى أحب رسول الإسلام، ولاندرى ماذا أقول بعد كلماته فى نبى الإسلام:

«كان (محمد) يملك حيويته ولا تملكه حيويته، ويستخدم وظائفه، ولا تستخدمه وظائفه»... إن شهادة الدكتور نظمى لوقا تضاف إلى شهادات بعض المنصفين أمثال الإنجليزى: "كارلايل"، وغيره، لكن حسبنا أن نطيل النفس، ونعيش بعض الوقت مع الدكتور نظمى لوقا وزواج الرسول من زينب بنت جحش، فماذا قال فى هذا الشأن:

«هذه زوجة كثر فى زواج محمد بها اللغط ، وعلت للمغرضين ضجة كبيرة، تولى كبرها مستشرقون كثير، وتبعهم من السوقة أقوام وأقوام، وكان سندهم فيها كالعهد بمنطق الأكذوبة أساسًا تاريخيًّا ثابتًا أقاموا عليه صرح المغالطة.

(تَزوج محمد ابنة عمته زينب بنت جحش) حقيقة ثابتة ليست موضع جدل (وكانت زينب بنت جحش زوجة زيد بن حارثة قبل ذلك، ثم طلقها بعد خلاف بينهما وجفوة) وهذه حقيقة تاريخية ثابتة، كذلك ليست موضع جدل (وزيد بن حارثة كان ابنًا بالتبنى لمحمد منذ الجاهلية، وهو الذى زوجه ابنة عمته هذه)، وهذه أيضًا حقيقة تاريخية ثابتة كذلك، وليست موضع جدل، ولكن القصة التى ركبوها تركيبًا من هذه العناصر الثلاثة قصة عجيبة حقًّا فى ألوانها البراقة، واستهوائها للعقول الساذجة، والنيات الخبيثة، فالقصة التى يلوكونها: أن زينب كانت وضيئة الحسن - حقيقة

لاتنكر- وأن الرسول آثر بها زيدًا ثم حدث أن رآها ذات يوم وقد ذهب ينشد زيدًا فى داره، فقيل: خرجت تستقبله وترحب به عندما سمعت صوته ينادى زيدًا من خارج الدار، وكان خروجها على غير أهبة كاملة فى الزى، فوقعت فى قلبه موقعًا حسنًا.

وذكر ذلك أيضًا فى رواية الطبرى، وفى تفسير الزمخشرى، والذى استغل من جانب المستشرقين الذين قالوا: إن القرآن حل مشكلة الرغبة المتقدة بآيات أحلت له زواج زينب، بل أمرته به أمرًا، وجعلت من ذلك قاعدة عامة، حتى لا تكون مطلقات الأبناء بالتبنى أو أراملهم محرمات بعد ذلك على المسلمين، وهم بذلك يشيرون إلى قوله تعالى: ﴿وَإِذْ تَقُولُ لِلَّذِىٓ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَأَنْعَمْتَ عَلَيْهِ أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ وَٱتَّقِ ٱللَّهَ وَتُخْفِى فِى نَفْسِكَ مَا ٱللَّهُ مُبْدِيهِ وَتَخْشَى ٱلنَّاسَ وَٱللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخْشَىٰهُ﴾ [الأحزاب:37].

ويستطرد د/ نظمى لوقا قوله فيقول: وأنا لا أجادل فى النصوص؛ لأنها أمور فوق كل جدل، وأعنى هنا: نصوص القرآن لا نصوص الطبرى والزمخشرى، أجل هما إمامان جليلان ومسلمان صادقان، ولكن القرب من الزمان والمكان من شخصية فذة مع الحب التقديسى لهما ليست ضمانًا مطلقًا للعصمة من الخطأ، مع فهم الدوافع الحقيقية لتلك الشخصية، وأنا من الذين جربوا صدق المثل السائر: رب احمنى من أصدقائى، أما أعدائى فأنا كفء لهم.

إن النهج الصحيح فى فهم أعمال كبار الرجال أن نتصورهم فى ضخامتهم، وفى عناصر تكوينهم النفسى، وعلى ضوء هذا التصور نتخير من الدوافع المختلفة الممكنة للعمل الواحد من أعمالهم ما يتفق وشخصيتهم، وليس للقرب من الزمن أدنى اعتبار فى هذا، فربما كان البعيد أقدر على صب الفهم وإصابة كبد الحقيقة من المعاصرين، ففى هذه المسائل النفسية يقيس المرء على نفسه غالبًا، وليس من المقطوع به عندى أن يكون المعاصرون للرسول أو من هم أقرب إلى زمانه منا أشبه به فى تركيبه النفسى، أو أقدر على تصور ذلك التركيب والاستنباط منه والقياس عليه،

فالقرب زمانًا أو مكانًا ليس حجة على العقل، وسأمضى فى عرض عناصر هذه القضية من بداياتها الطبيعية؛ كى يتضح للعقل وضعها السليم، والبداية الطبيعية أن نسأل أنفسنا: مَن زيد؟ ومَن زينب؟ ونبتدئ بزيد وقصة تبنى محمد له، فنلتمس عند ابن هشام تلك القصة نقلًا عن ابن إسحاق المطلبى:

(زيد بن حارثة بن شرحبيل بن كعب بن عبد العزى بن امرئ القيس الكلبى، مولى رسول الله ﷺ، وكان أول ذَكر أسلم، وصلىٰ بعد على بن أبى طالب، وكان حكيم بن حزام بن خويلد قدم من الشام برقيق فيهم زيد بن حارثة، فدخلت على حكيم بن حزام عمته خديجة بنت خويلد، وهى يومئذ زوج رسول الله ﷺ فقال لها: اختارى يا عمة أى هؤلاء الغلمان شئت فهو لك. (فاختارت زيدًا فأخذته فرآه رسول الله ﷺ عندها فاستوهبه منها فوهبته له، فأعتقه رسول الله ﷺ وتبناه، وذلك قبل أن يوحى إليه). وكان أبوه حارثة قد جزع عليه جزعًا شديدًا، وبكى عليه حين فقده، وظل ينشده إلى أن عثر عليه وهو عند رسول الله ﷺ، فقال رسول الله ﷺ لزيد: «**إِنْ شِئْتَ فَأَقِمْ عِنْدِى، وَإِنْ شِئْتَ فَانْطَلِقْ مَعَ أَبِيكَ**»، فقال: بل أقيم عندك، فلم يزل عند رسول الله ﷺ حتى بعثه الله فصدقه.

ويقال: إن الرسول لما رآه اختاره على أبيه أخذه بيده، وقام به إلى ملإ من قريش فقال: اشهدوا أن هذا ابنى وارثًا وموروثًا، فطابت نفس أبيه عند ذلك، وكان يدعى زيد بن محمد، فلما أنزل الله عز وجل ﴿**ٱدْعُوهُمْ لِأَبَآئِهِمْ**﴾ [الأحزاب:5] قال: أنا زيد بن حارثة.

هذا هو زيد، وهذا مكانه فى المجتمع القرشى، مكان الرقيق المعتق، وهذه مكانته من محمد مكانة الولد بالتبنى برًّا به، وحبًّا له، ورفعًا لخسيسته من قريش بعد أن آثره الفتى على أهله الأمجاد قبل البعثة، ومحمد يومئذ فرد من آحاد القرشيين، وفى ذلك ما فيه من آية على دماثته التى فطر عليها منذ كان.

والآن مَن هى زينب بنت جحش؟

هى بنت عمة محمد فى الذؤابة من قريش حسبًا، وفى الذؤابة من المسلمين قرابة من رسوله، ولها فى الجمال شهرة يتحدث بها معاصروها، ولما بلغ زيد مبلغ الرجال وآن له أن يتزوج شاء كرم محمد فى بره به أن يزيد فى إكرامه له، وأن يرفع فوق ما رفع فى قريش من خسيسته، فآثره بابنة عمته العقيلة، الكريمة الحسب، القريبة النسب، الوضيئة الجمال، والذى يدرك بعض الإدراك لما كانت عليه الفتاة العربية يومئذ من موروث الاعتزاز بالأحساب العريقة، والنظر إلى الكفاءة فى الزواج، يدرك - ولا شك - مدى العار الذى تستشعره مثيلات زينب من الزواج بعبد جرى عليه الرق ثم أعتق، ولو كان يدعى فى الناس ابن محمد!!!!

رواسب موروثة فى البيئة العربية لا حيلة فيها، ولا سيما عند النساء، وناهيك بالأمر إذا اتصل بها للواحدة من قيمة فى نظر نفسها أو نظر الناس، وتأذت زينب وتأبت، وتأذى أخوها وتأبى، وتحرج الموقف، والرسول يريد أن يحطم الفوارق بين المسلمين، ويقضى على خرافة الجاهلية وعصبيتها، فيثوب الناس إلى أن أكرمهم عند الله أتقاهم حقًّا، ولكن أكرم الناس عند الله ليسوا أكرمهم عند الناس فى جميع الأحوال، ولم يتم زواج زينب الحسناء الأبية العيوف من زيد إلا بحكم لا رد له، وللفرنجة مَثَل حصيف يضرب للأمر يتم من غير طيب نفس (فى وسعك أن تأتى بالجواد إلى شاطئ النهر، ولكن ليس فى وسعك أن تحمله على الشرب وهو لا يريد).

ووردت زينب مورد زيد، ولكنها ظلت عصية النفس، تجد لذلك الزواج غصة تعترض حلقها، وكلما لقيت زيدًا فى الدار تذكرت أن الذى هى فى عصمته إنما دخل دار ابن خالها رقيقًا وضيعًا، فكيف وهى الحرة تسام ذلك الخسف، ونظيراتها ومن دونها تزوجن من أكابر الأحرار؟

وظلت تتعاظم عليه، وتؤذيه بتعاظمها على حد قوله، فإذا بالزواج الذى كان سيرفع من خسيسته قد زادها تأكيدًا، وليس أقمأ لرجل من زوجته تستصغر شأنه

وتزدرى قدره، وضاق زيد بالأمر، وفاتح محمدًا فى طلاقها أكثر من مرة، وكان لابد أن يفاتحه فى ذلك، أليس هو الذى زوجه منها؟ أليس هو منه بمقام الوالد وبه يدعىٰ؟ وأليست هى ابنة عمته وقد أرادها على ذلك الزواج حتى أذعنت، وفى القلب من ذلك شيء.

وتردد الرسول طويلًا، كلما خاطبه فى طلاقها قال له: اتق الله وأمسك عليك زوجك، فقد كان عزيزًا عليه أن ينتهى هذا الزواج الذى سعى فيه وأمر به إلى تصدع وانهيار، وكان عزيزًا عليه أن تتقوض القاعدة التى أراد بذلك الزواج تقريرها، وهى محو الفوارق بين المسلمين، وإلغاء الطبقات فى صميم الأسرة العربية، وتقاليد المصاهرة فيها، كذلك محو الفوارق فى الدين والعبادة والجهاد والإمارة كان عزيزًا عليه أن تقف عقلية المرأة وتمسكها باعتبارات التناظر والتفاخر عقبة دون انتصار هذه الثورة الاجتماعية الإنسانية المنصفة للكرامة البشرية انتصارًا كاملًا شاملًا فى جميع الميادين، ولكن الفتى العزيز عليه وجد الأسى والنكر والإيذاء، حيث أراد له أن يجد النعيم والمتعة والعزة، ولكن اعتزاز المرأة كان أقوى من الإصلاح ومن مغزاه الكبير، فاستمرت تؤذى الفتى حتى نفد صبره وطلقها.

طلق زيد زينب ولم تكن له بها حاجة، وانقضى وطره منها، ولم يعد له فيها مأرب، فماذا ينتظر الآن زينب؟ ماذا ينتظر العقلية التى أذعنت طائعة للزواج ممن لاتود، ولكن نفسها لم تنْقد سَلِسَةً لذلك الزواج، فشقيت به وأشقت وغدت مطلقة صغيرة السن، وضيئة الحسن بغير زوج يحصنها ويعصمها.

عادت زينب بنت عمة محمد إلى بيت أهلها جريحة مطعونة فى شعورها الأنثوى وشعورها الاجتماعى، لم تخل من أسى لتوهم هوانها على ابن خالها حتى زوجها من دعى لصيق، وعبد عتيق، فأنكر خاطرها، وتأذت كرامتها، ولم تخل من تشاؤم وهمّ، فمن الذى يتزوج ثيبًا مطلقة مولى عتيق؟

أكبر الظن أنه لن يقدم على ذلك كفء لها ذو منبت عريق، ويزيد موقفها سوءًا، ويريد همها وحشة، أنها تزوجت مطلقها بأمر كريم، وعلم القاصي والداني أنها لم تحسن معاشرة هذا الزوج المظلوم، فمن يجرؤ على زواجها، وهو يعلم أن الرسولﷺ أمر بالزواج وعارض فى الطلاق، كلما استأذنه فيه زيد.

إنها لتحس بوادر النبذ تطبق عليها ويا له من موقف عصيب لحرة حسناء فى مقتبل العمر، وما كان محمد بالذى يفوته ما ينطوى عليه الموقف من اعتبارات دقيقة ثقيلة الوطأة على الشابة المكروبة، وما كان ليغفل صلته بما انتهى إليه حالها، أبت الفتاة، وأصر هو أن يكون أمره نافذًا، وهو الرسول، وابن الخال، وإنه ليعلم علم اليقين وهو الإنسان ذو القلب الكبير أن هوى القلب لا حيلة للمرء فيه، ولا يأتمر بإرادة أو يذعن لعقل، فهو لا يستطيع أن يلوم زينب؛ لأن قلبها عصاها، وأبى أن يهفو للفتى الذى يحبه هو حب الأبناء، وعلى هذا التأويل أعقل أن قوله: سبحان مصرف القلوب: أى سبحان الذى صرف قلب الشابة الحسناء عن الفتى الوسيم زيد، فلن تستطع أن تسكن إليه بعد أن تزوجته طائعة فدعته.

ذكر الرسول عندئذ ربه وحكمته، فكيف بعدئذ يلومها على ما لا تملك من هوى قلبها، وسبحان مصرف القلوب، لا لوم عليها، فكيف إذن يتركها تحمل وحدها ما لا وزر لها فيه، ولا طاقة لها بدفعه عن نفسها؟

لا بد أن يرفع عنها شعور الهوان والدونية الذى حاق بوهمها من ذلك الزواج غير المتكافئ على ظنها، لابد من زواج يكون بمثابة رد اعتبار لها، ورأى من واجبه أن يتزوجها، ثم رأى نفسه أمام اعتبار خاص من مخلفات البيئة العربية من تاريخ جاهليتها الطويل، وما أعنت البيئة الصحراوية من حفاظها على الموروث من الأنساب، والموروث من التقاليد، رأى نفسه أمام عقيدة مساواة الأبناء بالتبنى بالأبناء الحقيقيين فى كل شيء؛ فأرملة الابن بالتبنى، أو مطلقته حرام على الأب حرمة مطلقة الابن الحقيقى، أو أرملته، حرمة قديمة متأصلة موروثة، وزينب ذات

شهرة مستفيضة بالجهال، فما عسى أن يقول الناس إذن! وما عسى أن يتناجى به أحياء العرب!، وقد رأوا الرسول يتزوج مطلقة ابنه، ألا يرمونه بقالة السوء؟ ألا يخوضون فى نزاهة مقصده؟

وتردد محرجًا بين إرضاء ضميره وإطاعة نخوته بجبر خاطر زينب الكسير، ورفعها إلى مقام أمهات المؤمنين، وبين النأى بنفسه عن تلك الشبهات (ومن قصد الريبة ركبته) وهو الحصيف الذى خبر قلوب الناس، وعرف ضوامينهم من نفسه، ضاقت فجاجها حتى أتاه مارفع الحرج عنه.

قال تعالى: ﴿وَإِذْ تَقُولُ لِلَّذِىٓ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَأَنْعَمْتَ عَلَيْهِ أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ وَٱتَّقِ ٱللَّهَ وَتُخْفِى فِى نَفْسِكَ مَا ٱللَّهُ مُبْدِيهِ وَتَخْشَى ٱلنَّاسَ وَٱللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخْشَىٰهُ فَلَمَّا قَضَىٰ زَيْدٌ مِّنْهَا وَطَرًا زَوَّجْنَٰكَهَا لِكَىْ لَا يَكُونَ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ حَرَجٌ فِىٓ أَزْوَٰجِ أَدْعِيَآئِهِمْ إِذَا قَضَوْا۟ مِنْهُنَّ وَطَرًا وَكَانَ أَمْرُ ٱللَّهِ مَفْعُولًا﴾ [الأحزاب:37].

وبذلك قضى على سلطان التبنى، وما يترتب عليه من حرمة لا أساس لها، وما أخفى محمد فى نفسه إلا الرغبة فى جبر خاطر كسير لا سبيل إلى علاجه حق العلاج إلا بيده، وما الأمر بالزواج هنا إلا منطوق حكم تبعته حيثياته الملزمة للعقل، وألحقت به القاعدة العامة التى يلتزم بها سائر الناس من بعد، وليس فى ذلك حرمة ولا شبه حرمة، وليست تلك بالتى تسقط مروءة أحد، بل إن ظروف ذلك الزواج جميعها تؤذن بأنه كان من أعمال النخوة عن محمد، ولم يكن تهورًا ساقه إليه هوى صبيانى طائش، ولكن هل كان ذلك الموقف السامى من فطنته ونبله بالذى يرتفع إلى مستواه كل عقل؟ إن معظم العقول تغرم بزخرفة الخيال وأوهام الحس الشائعة بين سواد الناس، فكان ما كان من اختلاط الفهم أو تلفيق البهتان[1].

(1) محمد فى حياته الخاصة، د/ نظمى لوقا ص ص (115 - 128).

تلك شهادة أحد المخالفين للإسلام، قدمناها على سبيل الاستئناس؛ اتباعًا لمنهج القرآن فى الحكم على المخالفين بأنهم ليسوا سواء.

بقى أن نقدم تعريفًا بزوجات رسول الله ﷺ، وبيانًا بأمهات المؤمنين اللاتى ارتبط بهن سيدنا محمد ﷺ، فلعل فى ذلك كله إظهارًا لحقائق غائبة، ودفعًا لشبهات رائجة.

سيرة أمهات المؤمنين

1ـ أم المؤمنين السيدة خديجة [1]:

السيدة الفاضلة أم المؤمنين خديجة بنت خويلد رضى الله عنها هى فاتحة الخير ومبعث النور وخير نساء الأمة وسيدة نساء العالمين التى بشرها رسول الله ﷺ ببيت فى الجنة من قصب (اللؤلؤ المجوف) لاصخب (لا ضجة ولا غلبة) فيه ولا نصب (تعب).

وأم المؤمنين خديجة رضى الله عنها هى من النساء الكوامل ففى الحديث «**كَمُلَ مِنْ الرِّجَالِ كَثِيرٌ وَلَمْ يَكْمُلْ مِنْ النِّسَاءِ إِلَّا مَرْيَمُ بِنْتُ عِمْرَانَ وَآسِيَةُ امْرَأَةُ فِرْعَوْنَ وَخَدِيجَةُ بِنْتُ خُوَيْلِدٍ وَفَاطِمَةُ بِنْتُ مُحَمَّدٍ وَفَضْلَ عَائِشَةَ عَلَى النِّسَاءِ كَفَضْلِ الثَّرِيدِ عَلَى سَائِرِ الطَّعَامِ**»[2].

وصح عن رسول الله ﷺ كذلك: «**حَسْبُكَ مِنْ نِسَاءِ الْعَالَمِينَ مَرْيَمُ ابْنَةُ عِمْرَانَ وَخَدِيجَةُ بِنْتُ خُوَيْلِدٍ وَفَاطِمَةُ بِنْتُ مُحَمَّدٍ وَآسِيَةُ امْرَأَةُ فِرْعَوْنَ** »[3]؟

فمَنْ هى تلك المرأة التى استحقت تلك المنزلة، ونالت تلك المكانة؟

بأى شيء حظيت هذا الشرف؟

وما هى مواقفها التى بوأتها هذه المنزلة؟

لعلنا فى هذه السطور القليلة نستطيع أن نجيب على هذه الأسئلة.

---

(1) راجع: سير أعلام النبلاء 2ص109، 110، جامع الأصول: 120/9 ، 121، الإصابة: 8 ص ص60، 61.

(2) ذكره ابن كثير فى السيرة النبوية (2ص137)، وقصص الأنبياء (2ص379)

(3) رواه أبو داود كتاب المناقب، باب: فضل خديجة رضى الله عنها حديث رقم (3878)، وقال الشيخ الألبانى: صحيح.

أولًا: التعريف بأم المؤمنين خديجة:

1- هى خديجة بنت خويلد بن أسد بن عبد العزى بن قصى بن كلاب، القرشية الأسدية، وأمها فاطمة بنت زائدة العامرية، وتلتقى أم المؤمنين خديجة مع رسول الله ﷺ عند قصى بن كلاب، وهى أقرب إليه برجل من رسول الله ﷺ، فهى من أقرب نسائه ﷺ إليه.

2- كانت أوسط نساء قريش نسبًا، وأعظمهم شرفًا، ونشأت فى طهر وعفاف، وكانت تُدعىٰ فى الجاهلية: الطاهرة، واتصفت بالأخلاق الفاضلة مع ما أنعم الله عليها من جمال، فجمعت الحسن المادى والمعنوى، وكانت امرأة حازمة (ضابطة) جلدة (قوية).

3- تزوجت قبل رسول الله ﷺ مرتين: فكانت أولًا تحت أبى هالة بن زرارة التميمى، ثم خلف عليها بعد موته عتيق بن عابد بن عبد الله بن عمر بن مخزوم.

وولدت السيدة خديجة رضى الله عنها لأبى هالة: هندا (ذكَرا)، والحارث، وزينب أو هالة، وولدت لعتيق عبد الله، وقيل عبد مناف، وأنجبت هندًا (أنثى) وكانت تكنى بأم هند.

4- اختار الله لرسوله ﷺ الزواج من خديجة رضى الله عنها فبنى بها وله خمس وعشرون سنة، وكانت أسن منه بخمس عشرة سنة.

حيث أنكح خديجة عمها عمرو بن أسد، وكان أبوها خويلد توفى قبل حرب الفجار[1].

---

(1) حرب الفجار: يوم حرب كانت بين قريش ومن معها من كنانة، وبين قيس بن عيلان أيام الجاهلية، وسمى بهذا؛ لوقوعه فى الأشهر الحرم التى يحرم فيها القتال، وكان بعد عام الفيل بعشرين سنة تقريبًا.

وذهب أبو طالب عم النبى ﷺ معه، وهو الذى خطب خطبة النكاح وفيها: الحمد لله الذى جعلنا من ذرية إبراهيم وزرع إسماعيل وضئضى معد (أى أصله)، وعنصر مضر، وجعلنا حضنة بيته، وسُواس حرمه، وجعل لنا بيتًا محجوجًا، وحرمًا آمنًا، وجعلنا الحكام على الناس، ثم إن ابن أخى هذا محمد بن عبد الله لا يوزن به رجل إلارجح به، فإن كان فى المال قُل؛ فإن المال ظل زائل، وأمر حائل، ومحمد مَنْ عرفتم قرابته، وقد خطب خديجة بنت خويلد، وبذل لها من الصداق ما آجله وعاجله من مالى كذا، وهو والله بعد هذا له نبأ عظيم، وخطب جليل.

فقال عمها عمرو: هو الفحل الذى لا يقدع أنفه (أى الكريم) فأنكحها منه، وشهد على ذلك صناديد قريش، وكان صداقها أربعمائة دينار، وولدت لرسول الله ﷺ جميع أولاده ما عدا إبراهيم فمن مارية، وكانت تُكنى بأم القاسم، وظل رسول الله ﷺ يكنى بأبى القاسم حتى بعد وفاتها، نسبة إلى ابنهما القاسم، وأولاده ﷺ من خديجة هم: القاسم، وعبد الله، ويقال له: الطاهر والطيب، ورقية، وزينب، وأم كلثوم، وفاطمة، ومات جميع أولاده فى حياته ما عدا فاطمة؛ فقد ماتت بعده مباشرة بثلاثة أو بستة أشهر تقريبًا، والله أعلم.

ثانيًا: مواقف أم المؤمنين خديجة رضى الله عنها:

حسبنا أن نقف قليلًا مع السيدة عائشة رضى الله عنها تصور لنا حب رسول الله ﷺ لتلك السيدة الأولى فى حياة رسول الله ﷺ: تقول السيدة عائشة: **«مَا غِرْتُ عَلَى أَحَدٍ مِنْ نِسَاءِ النَّبِى صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مَا غِرْتُ عَلَى خَدِيجَةَ وَمَا رَأَيْتُهَا وَلَكِنْ كَانَ النَّبِى صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يُكْثِرُ ذِكْرَهَا وَرُبَّمَا ذَبَحَ الشَّاةَ ثُمَّ يُقَطِّعُهَا أَعْضَاءً ثُمَّ يَبْعَثُهَا فِى صَدَائِقِ خَدِيجَةَ فَرُبَّمَا قُلْتُ لَهُ كَأَنَّهُ لَمْ يَكُنْ فِى الدُّنْيَا امْرَأَةٌ إِلَّا خَدِيجَةُ فَيَقُولُ إِنَّهَا**

كَانَتْ وَكَانَتْ وَكَانَ لِي مِنْهَا وَلَدٌ»[1].

وذكرت السيدة عائشة السيدة خديجة؛ - من كثرة ذكر الرسول لها - بأنها عجوز وأن الله تعالى أبدله خيرًا منها - تريد نفسها - فماذا كان رد الرسول الكريم تجاه الغيرة؟

كان رده حاسمًا قاطعًا لها: «مَا أَبْدَلَنِي اللهُ عَزَّ وَجَلَّ خَيْرًا مِنْهَا قَدْ آمَنَتْ بِي إِذْ كَفَرَ بِي النَّاسُ وَصَدَّقَتْنِي إِذْ كَذَّبَنِي النَّاسُ وَوَاسَتْنِي بِمَالِهَا إِذْ حَرَمَنِي النَّاسُ وَرَزَقَنِي اللهُ عَزَّ وَجَلَّ وَلَدَهَا إِذْ حَرَمَنِي أَوْلَادَ النِّسَاءِ»(2). قلت (عائشة): «والله لا أعاتبك فيها بعد اليوم».

تلكم هي أم المؤمنين خديجة كما يتحدث عنها رسول الله ﷺ فمن أبرز مواقفها:

1- كانت أول خلق الله أسلم بإجماع المسلمين، وآمنت برسول الله ﷺ، حين كفر الناس، وصدقت برسالته إذ كذبه الناس، وتحملت معه أعباء الدعوة، ووقفت بجانبه منذ أن فاجأه الوحي، روى البخاري في صحيحه عن عائشة أم المؤمنين أنها قالت: (أول ما بدئ به رسول الله ﷺ من الوحي الرؤيا الصالحة في النوم، فكان لايرى رؤيا إلا جاءت مثل فلق الصبح، ثم حبب إليه الخلاء، وكان يخلو بغار حراء فيتحنث فيه (وهو التعبد) الليالي ذوات العدد قبل أن ينزع إلى أهله ويتزود لذلك ثم يرجع إلى خديجة فيتزود لمثلها، حتى جاءه الحق وهو في غار حراء، فجاءه الملك فقال: اقرأ قال: « مَا أَنَا بِقَارِئٍ » قال: « فَأَخَذَنِي فَغَطَّنِي حَتَّى بَلَغَ مِنِّي الْجُهْدَ ثُمَّ أَرْسَلَنِي » فقال: اقرأ. قلت: « مَا أَنَا بِقَارِئٍ فَأَخَذَنِي فَغَطَّنِي الثَّانِيَةَ حَتَّى بَلَغَ مِنِّي

---

(1) رواه البخاري كتاب المناقب، باب: تزويج النبي ﷺ خديجة رقم (3818)، ومسلم في كتاب فضائل الصحابة، باب: فضائل خديجة أم المؤمنين رضي الله تعالى عنها رقم (2435).

(2) رواه أحمد باقي مسند الأنصار رقم (24343)، وقال الشيخ شعيب الأرنؤوط : حديث صحيح وهذا سند حسن في المتابعات.

الْجُهْدَ ثُمَّ أَرْسَلَنِى» فقال: اقْرأْ. فَقُلْتُ: «مَا أَنَا بِقَارِئٍ فَأَخَذَنِى فَغَطَّنِى الثَّالِثَةَ ثُمَّ أَرْسَلَنِى» فَقَالَ: اقْرأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِى خَلَقَ، خَلَقَ الإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ، اقْرأْ وَرَبُّكَ الأَكْرَمُ، فَرَجَعَ بِهَا رَسُولُ الله ﷺ يَرْجُفُ فُؤَادُهُ، فَدَخَلَ عَلَى خَدِيجَةَ بِنْتِ خُوَيْلِدٍ رَضِىَ اللهُ عَنْهَا فَقَالَ: «زَمِّلُونِى زَمِّلُونِى» فَزَمَّلُوهُ (لَفُّوهُ وَغَطُّوهُ فِى ثِيَابِهِ) حَتَّى ذَهَبَ عَنْهُ الرَّوْعُ (الْخَوْفُ وَالْفَزَعُ) فَقَالَ لِخَدِيجَةَ وَأَخْبَرَهَا الْخَبَرَ: «لَقَدْ خَشِيتُ عَلَى نَفْسِى». فَقَالَتْ خَدِيجَةُ: كَلاَّ وَالله مَا يُخْزِيكَ اللهُ أَبَدًا، إِنَّكَ لَتَصِلُ الرَّحِمَ، وَتَحْمِلُ الْكَلَّ، وَتُكْسِبُ الْمَعْدُومَ، وَتَقْرِى الضَّيْفَ، وَتُعِينُ عَلَى نَوَائِبِ الْحَقِّ، فانطلقت به خديجة حتى أتت به ورقةَ بن نوفل بن أسد بن عبد العزى ابن عم خديجة... الحديث) [1].

وفيه تبدو أمور كثيرة منها:

الأمر الأول: حب السيدة خديجة رضى الله عنها لرسول الله ﷺ، والعمل على راحته فى خلوته وتزويده بما يحتاج فى عبادة ربه.

الأمر الثانى: العمل على تثبيت قلبه والثقة فى نفسه، وإبعاد الخوف من فؤاده استنادًا إلى مكارم أخلاقه ومحاسن فعاله، حيث إنه محسن إلى الأقارب وإلى الأجانب، وخيره إلى القاصى والدانى، ومعروفه إلى القريب والغريب، وهكذا تكون الزوجة الصالحة والرفيقة الموفقة تقف بجانب زوجها تؤنسه فى شدته، وتهون عليه أمره، وتعدد عليه مكارمه التى تبدد كربته وتزيل وحشته.

الأمر الثالث: ثقة الرسول ﷺ بخديجة واستجابته لها بالذَّهاب إلى ورقة ابن عمها، لما كان عليه ورقة من علم بالنصرانية، وكراهة لعبادة الأوثان، وقد عرف أن ما نزل على رسول الله ﷺ هو الوحى وتمنى أن يعيش لينصره ويقف بجانبه فى دعوته، لكن لم يلبث ورقة أن توفى.

---

(1) رواه البخارى كتاب بدء الوحى باب: بدء الوحى رقم (4)، ومسلم فى كتاب الإيمان باب: بدء الوحى إلى رسول الله ﷺ رقم (160).

2- كانت خديجة ذات مال كثير ورزق وفير، تستأجر الرجال فى مالها وتضاربهم إياه بشيء تجعله لهم، وكانت قريش قومًا تجارًا، فلما بلغها عن رسول الله ﷺ مابلغها من صدق حديثه وعظم أمانته، وكرم أخلاقه بعثت إليه؛ فعرضت عليه أن يخرج فى مال لها إلى الشام تاجرًا وتعطيه أفضل ما كانت تعطى غيره من التجار مع غلام لهايقال له ميسرة، فقبله رسول الله ﷺ منها، وخرج فى مالها ذلك، وخرج معه ميسرة، فلما عادا حدثها ميسرة عما كان يرى من إظلال مَلَكَيْنِ لسيدنا محمد من الشمس، وما أجرى الله على يديه من الخير والبركة، وما تم فى هذه القافلة، فلما أخبرها ميسرة بذلك رغبت فيه وهى التى رغبت عن غيره؛ فكل قومها كان حريصًا على الزواج بها لو يقدر عليه.

ومنذ تلك اللحظة وقد رصدت مالها ونفسها لخدمة الإسلام، وما أجمل قولَ الرسول الكريم: «وَوَاسَتْنِى بِمَالِهَا إِذْ حَرَمَنِى النَّاسُ» فواسته وآزرته ولم تبخل بشىء، وظلت على وفائها حتى ماتت قبل الهجرة بثلاث سنين، عن بضع وستين سنة.

وهنا وقفة مهمة: هى أن خديجة هى التى عرضت الزواج من الرسول، وهى المرأة العاقلة وسيدة الأعمال التى لا يمكن لأحد أن يضحك عليها، فليتنح هؤلاء المفترون على رسول الله، الذين يزعمون أن محمدًا تزوج خديجة طمعًا فى مالها، وغاب عنهم شخصية خديجة، وقد سبق لها الزواج مرتين، ولا يمكن لأحد أن يطمع فيها أو يضحك عليها!

3- كانت لرسول الله وزير صدق على الإسلام يشكو إليها ما يسمعه وما يواجه به من مكروه، وتكذيب له، ويبلغ به الحزن كل مبلغ؛ فإذا ما رجع إلى خديجة هوَّنت عليه أمر الناس، وفرَّج الله عنه بها، فاستحقت بشارة رسول الله ﷺ ببيت فى الجنة، ويأتى جبريل رسول الله ﷺ يطلب منه أن يُقرئ خديجة السلام من ربها فيبلغها رسول الله ﷺ فتقول خديجة: الله السلام، ومنه السلام، وعلى جبريل السلام.

كان رسول الله ﷺ نِعم الزوج الوفى لامرأته التى عاش معها دون غيرها من النساء زهرة شبابه وفترة حيويته ونشاطه، وظل وفيًّا لها بعد موتها، ولم يقطع لها معروفًا، ولم يسمح لأحد أن ينال منها؛ كأنه لم يكن فى الدنيا امرأة إلا خديجة، ولم لا؟فإن حسن العهد من الإيمان. رضى الله عن أم المؤمنين خديجة.

2ـ أم المؤمنين السيدة سَوْدَة بنت زَمْعَة رضى الله عنها[1]:

تقول أم المؤمنين عائشة رضى الله عنها: (ما من امرأة أحب أن أكون فى صلاحها من سودة؛ غير أن فيها حِدةً تسرع منها الفيئة) أى أنها إذا غضبت أسرعت بالرجوع، ولا يدوم غضبها طويلًا..

لقد تمنت أم المؤمنين عائشة رضى الله عنها – وهى مَنْ هى فى الشرف والمكانة – أن تكون كما كانت أم المؤمنين سَوْدة بنت زمعة فى هديها وطريقتها، ولا شك أن تلك الشهادة العالية تدفعنا إلى أن نتعرف على بعض الجوانب فى هذه القدوة الطيبة والأسوة الحسنة.

التعريف بها:

سَوْدة بنت زمعة بن قيس بن عبد شمس القرشية العامرية، أمها الشموس بنت قيس بنت زيد الأنصارية من بنى عدى بن النجار.

أسلمت سودة بمكة قديمًا وزوجها السكران بن عمرو ابن عم أبيها، وكانت فى سن أم المؤمنين خديجة رضى الله عنها تقريبًا، لكن أم المؤمنين سودة لم تكن فى جمال خديجة أو مكانتها الاجتماعية، وكانت سودة امرأة بطيئة (جسيمة، ثقيلة الجسم) قصيرة أى: ليست مطمعًا للرجال!!.

(1) راجع: سير أعلام النبلاء: (2 ص 265)، طبقات ابن سعد (8 ص 52)، الإصابة:(8 ص 117).

الهجرة إلى الحبشة:

فى مكة المكرمة آذى المشركون المسلمين والمسلمات وأهانوهم إهانة بالغة، وضربوهم ضربًا شديدًا، فلما رأى رسول الله ﷺ ما يصيب أصحابه من البلاء وكان الله عز وجل قد منعه بعمه أبى طالب، ولا يستطيع رسول الله ﷺ أن يمنع أصحابه قال لهم: «**لَوْ خَرَجْتُمْ إِلَى أَرْضِ الْحَبَشَةِ؟ فَإِنّ بِهَا مَلِكًا لَا يُظْلَمُ عِنْدَهُ أَحَدٌ - وَهِى أَرْضُ صِدْقٍ- حَتّى يَجْعَلَ اللهُ لَكُمْ فَرَجًا مِمّا أَنْتُمْ فِيهِ**».

فخرج عند ذلك المسلمون من أصحاب رسول الله ﷺ إلى أرض الحبشة مخافة الفتنة، وفرارًا إلى الله بدينهم، فكانت أول هجرة كانت فى الإسلام وقد تتابع المسلمون حتى اجتمعوا بأرض الحبشة.

وكانت أم المؤمنين السيدة سودة بنت زمعة وزوجها السكران بن عمرو وأخوه سليط بن عمرو من تلك الجماعة المؤمنة التى فرت بدينها واتبعت أمر نبيها، وهكذا ينبغى أن تكون المرأة الصالحة مضحية من أجل الدين فتؤثر الآخرة على الدنيا، وترى فى الدين عزها وفلاحها، ولا ترضى بالذل والهوان مهما كلفها ذلك من تضحيات بهجرة الأوطان ومفارقة الصديقات والجيران.

وفى القرآن الكريم نعى شديد على القادرين على الهجرة وليسوا متمكنين من إقامة الدين، ومع ذلك يبقون فى أماكنهم لا يتحركون.

قال تعالى:﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَوَفَّىٰهُمُ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ ظَالِمِىٓ أَنفُسِهِمْ قَالُواْ فِيمَ كُنتُمْ ۖ قَالُواْ كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِى ٱلْأَرْضِ ۚ قَالُوٓاْ أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ ٱللَّهِ وَٰسِعَةً فَتُهَاجِرُواْ فِيهَا ۚ فَأُوْلَـٰٓئِكَ مَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ ۖ وَسَآءَتْ مَصِيرًا ﴿٩٧﴾ إِلَّا ٱلْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ ٱلرِّجَالِ وَٱلنِّسَآءِ وَٱلْوِلْدَٰنِ لَا يَسْتَطِيعُونَ حِيلَةً وَلَا يَهْتَدُونَ سَبِيلًا ﴿٩٨﴾ فَأُوْلَـٰٓئِكَ عَسَى ٱللَّهُ أَن يَعْفُوَ عَنْهُمْ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَفُوًّا غَفُورًا ﴿٩٩﴾ ۞ وَمَن يُهَاجِرْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ يَجِدْ فِى ٱلْأَرْضِ

مُرَٰغَمًا كَثِيرًا وَسَعَةً ۚ وَمَن يَخْرُجْ مِنۢ بَيْتِهِۦ مُهَاجِرًا إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ثُمَّ يُدْرِكْهُ ٱلْمَوْتُ فَقَدْ وَقَعَ أَجْرُهُۥ عَلَى ٱللَّهِ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿١٠٠﴾ ﴾ [النساء:97- 100].

هاجرت سودة فى سبيل الله تعالى، وخرج زوجها من بيته مهاجرًا إلى الله ورسوله وأدركه الموت بمكة حين عاد مع مَن عاد من المهاجرين من الحبشة إلى مكة وذلك حين بلغهم إسلام أهل مكة وكان النقل ليس بصحيح، وبقيت سودة بلا زوج وعاشت وهى فى سنها بلا راع؛ فكافأها الله على جهادها بخير زوج، ورزقها الله تعالى بأكرم راعٍ.

زواجها برسول الله ﷺ:

عادت السيدة سودة مع زوجها السكران إلى مكة التى مات بها قبل الهجرة النبوية فى الوقت الذى عاش فيه رسول الله ﷺ بلا امرأة بعد وفاة أم المؤمنين السيدة خديجة رضى الله عنها، وذهبت السيدة خولة بنت حكيم بن الأوقص رضى الله عنها امرأة عثمان بن مظعون رضى الله عنه إلى رسول الله ﷺ بعد وفاة خديجة قالت: يارسول الله ألا تزوَّج؟ قال «**بلى: فإنكن معشر النساء أرفق بذلك ثم قال مَنْ؟**» قالت: إن شئتَ بكرًا وإن شئت ثيبًا؟ قال: « **فَمَنِ الْبِكْرُ ؟**» قالت: ابنة أحب خلق الله إليك: عائشة بنت أبى بكر رضى الله عنها قال: « **وَمَنِ الثَّيِّبُ؟**» قالت: سودة بنت زَمْعة رضى الله عنها ، «**آمنت بك، واتبعتك على ما أنت عليه**»، فخطبت عليه سودة بنت زمعة وعائشة فتزوجهما، فبنىٰ بسودة بمكة، وعائشة يومئذ بنت ست سنين، حتى بنى بها بعد ذلك حين قدم المدينة.

سودة شديدة الاتباع لأمر رسول الله ﷺ:

حج رسول الله ﷺ حجة الوَدَاع فى السنة العاشرة للهجرة ومعه نساؤه أمهات المؤمنين – رضى الله عنهن – وفيهن أم المؤمنين السيدة سودة بنت زمعة، ووجَّه

رسول الله ﷺ آمرًا إلى نسائه وتوجيهًا إلى زوجاته بأن يلزمن بيوتهن بعد أداء هذه الحجة، ولا يؤدين الحج بعدها ولا يخرجن إلا للحاجة.

وتفاوتت الآراء فى فهم توجيه رسول الله ﷺ واختلفت العقول فى معنى كلام النبى ﷺ بين ملتزمة بالنص النبوى وأمر الرسول الكريم، وبين مجتهدة فى فهم المراد من النص والأخذ بروحه دون لفظه، ففهمت أن تكرار الحج لا شيء فيه.

لكن أم المؤمنين سودة بنت زمعة رضى الله عنها تمسكت بظاهر النص والتزمت بالأمر النبوى بعدم الحج بعد حجة الوداع، وعدم الخروج من البيت ولزومه، فعن أبى هريرة رضى الله عنه أن رسول الله ﷺ قال لنسائه عام حجة الوداع: « **هَـٰذِهِ الْحَجَّةُ -أى الواجب عليكن هذه الحجة- ثُمَّ الْـزَمْنَ ظُهُـورَ الْحُـصْرِ (ما يفرش فى البيت)** ».

قال: فَكنَّ كلهن يحججن إلا زينب بنت جحش، وسودة بنت زمعة رضى الله عنها، وكانتا تقولان: والله لا تحركنا دابة بعد أن سمعنا ذلك عن النبى ﷺ.

سودة الحريصة على رضا رسول الله ﷺ:

كما كانت أم المؤمنين سودة شديدة الاتباع لأمر النبى كانت - كذلك - حريصة على رضاه ﷺ تُؤثر هواه على هواها.

لقد كان النبى ﷺ يعدل بين نسائه؛ فكان إذا أراد سفرًا أقرع بينهن فأيتهن خرج سهمها خرج بها معه، وكان يقسم لكل امرأة فيدنو ويلمس من غير مسيس، حتى يبيت عند التى هو يومها.

إن الحديث عن حسن خلق النبى ﷺ وحسن معاشرته لأهله حديث طويل يدفع إلى الإجلال والاحترام والتقدير لخير الأزواج ﷺ، لكن أم المؤمنين سودة وقد رأت فى نفسها أن زمن الصبا وَلَّى وأدبر، وقد طعنت فى السن وليس لها فى الشهوة رغبة، فنظرت فى أحب النساء إلى رسول الله ﷺ فلم تشك أنها عائشة؛ فاستأذنت رسول الله ﷺ أن تَهب يومها لعائشة؛ فأذن لها؛ فكان رسول الله ﷺ - بعد ذلك - يجعل لعائشة يومين يومها ويوم سودة.

فعن عائشة رضى الله عنها: ﴿وَإِنِ ٱمْرَأَةٌ خَافَتْ مِنۢ بَعْلِهَا نُشُوزًا أَوْ إِعْرَاضًا﴾ [النساء:128] قالت: الرجل تكون عنده المرأة ليس بمستكثر منها يريد أن يفارقها، فتقول: أجعلك من شأنى فى حِلّ فنزلت هذه الآية. قال تعالى: ﴿وَإِنِ ٱمْرَأَةٌ خَافَتْ مِنۢ بَعْلِهَا نُشُوزًا أَوْ إِعْرَاضًا فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَآ أَن يُصْلِحَا بَيْنَهُمَا صُلْحًا ۚ وَٱلصُّلْحُ خَيْرٌ ۗ وَأُحْضِرَتِ ٱلْأَنفُسُ ٱلشُّحَّ ۚ وَإِن تُحْسِنُوا۟ وَتَتَّقُوا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا﴾ [النساء:128].

والآية عامة فى كل امرأة خافت من زوجها أن ينفر عنها أو يعرض عنها، لها أن تسقط عنها حقها أو بعضه من نفقة أو كسوة أو مبيت أو غير ذلك من حقوقها، وله أن يقبل ذلك منها فلا حرج عليها فى بذلها ذلك، ولا عليه فى قبوله منها.

ومما تميزت به السيدة سودة رضى الله عنها أنها كانت طيبة القلب لا تعرف المكر والدهاء، خفيفة الظل وكانت تضحك رسول الله ﷺ بالشىء أحيانًا.

يُروى أنها كانت تصلى خلف رسول الله ﷺ الليل فركع بها الرسول ﷺ تقول: حتى أمسكت بأنفى مخافة أن يقطر الدم؛ فضحك رسول الله ﷺ، فلم تتحمل ذلك لجسامتها.

وذات يوم طبخت السيدة عائشة حريرة (دقيق يطبخ بلبن أو دسم) وقالت لسودة: كلى. فأبت (رفضت) فقالت: لتأكلن أو لألطخن وجهك، فأبت. فلطخت وجهها بها، فضحك النبى ﷺ فوضع بيده لها وقال لسودة: الطخى وجهها، فلطخت وجه عائشة، فضحك النبى ﷺ، وفى هذا بيان لمعاشرته ﷺ لنسائه فلم يكن فظًّا ولا غليظ القلب.

سودة المجتهدة فى طاعة الله تعالى:

كانت أم المؤمنين سودة رضى الله عنها ذات عبادة وورع وزهادة وصلاح، ومما يروى عنها أن عمر بن الخطاب رضى الله عنه بعث إليها بغرارة (وعاء كبير تسميه العامة الشوال) من دراهم فقالت: ما هذه؟ قالوا: دراهم. قالت: فى غرارة مثل التمر؛ ففرقتها.

وبعد حياة طويلة عامرة بالخير والصلاح ماتت أم المؤمنين سودة بنت زمعة تاركة لنا صفحات رائدة فى شدة الاتباع والحرص على رضا الزوج، والاجتهاد فى طاعة الله،تعالى والفرار بالدين مخافة الفتنة، والزهد فى متاع الدنيا، والحرص على فراغ القلب إلا من ذكر الله تعالى.

وتوفيت أم المؤمنين سودة فى آخر زمان عمر بن الخطاب رضى الله عنها ويقال: ماتت سنة أربع وخمسين هجرية.

رضى الله عن أم المؤمنين سودة بنت زمعة.

ونحن نتساءل أين مكان الشهوة فى سودة بنت زمعة؟

وهى التى اكتفت بشرف الانتساب إلى بيت النبوة؟؟

ووهبت يومها لعائشة؟!

ألا لعنة الله على الظالمين!

3ـ أم المؤمنين السيدة «عائشة» رضى الله عنها[1]:

ما أجمل الحديث عن أم المؤمنين عائشة رضى الله عنها، وما أحوج المرأة المسلمة إلى التعرف على محبوبة رسول الله ﷺ، وصاحبة المناقب والخصائص التى تفردت

(1) راجع: سير أعلام النبلاء: (2 ص135)، طبقات ابن سعد (8 ص58)، الإصابة: (8 ص139).

بها دون سواها، ورضى الله عن ابن عباس حين دخل عليها عند وفاتها قائلًا: (أبشرى فما بينك وبين أن تلقْى محمدًا ﷺ والأحبة إلا أن تخرج الروح من الجسد:

كنتِ أحبَّ نساء رسول الله ﷺ إلى رسول الله ﷺ، ولم يكن رسول الله ﷺ يحب إلا طيبًا، وسقطت قلادتك ليلة الأبواء فأصبح رسول الله ﷺ حتى أصبح فى المنزل وأصبح الناس ليس معهم ماء فأنزل الله عز وجل ﴿فَتَيَمَّمُواْ صَعِيدًا طَيِّبًا﴾ [المائدة:6] فكان هذا من سببك، وما أنزل الله عز وجل لهذه الأمة من الرخصة، وأنزل الله عز وجل براءتك من فوق سبع سموات جاء به الروح الأمين، فأصبح ليس مسجد من مساجد الله عز وجل يُذكر فيه الله إلا تُتلى فيه آناء الليل وآناء النهار...).

أبشرى يا أم المؤمنين ولم لا! وأنت صاحبة هذه المناقب وتلك الخصائص.

ألستِ أَحبَّ النساء إلى قلب النبى ﷺ؟! فقد ثبت فى الصحيحين عن عمرو بن العاص أنه أتى النبى ﷺ فقال: أى الناس أحبُّ إليك يا رسول الله؟ قال: «**عائشة...**» وثبت كذلك قول ﷺ: «.. **وَفَضْلُ عَائِشَةَ عَلَى النِّسَاءِ كَفَضْلِ الثَّرِيدِ عَلَى سَائِرِ الطَّعَامِ**» ووهبتها السيدة سودة أم المؤمنين رضى الله عنها يومها تقربًا إلى رسول الله ﷺ.

وكان الناس يتحرون بهداياهم يوم عائشة يبتغون مرضاة رسول الله ﷺ؛ فاجتمعت نساء النبى إلى أم سلمة وقلن لها: يا أم سلمة، والله إن الناس ليتحرون بهداياهم يوم عائشة، وإنا نريد الخير كما تريده عائشة، فمرى رسول الله ﷺ أن يأمر الناس أن يهدوا إليه حيث ما كان، أو حيث ما دار. فذكرت أم سلمة ذلك للنبى ﷺ فأعرض عنها ثلاثًا ثم قال: «**يَا أُمَّ سَلَمَةَ، لَا تُؤْذِينِى فِى عَائِشَةَ ؛ فَإِنَّهُ وَاللهِ مَا نَزَلَ عَلَى الْوَحْى وَأَنَا فِى لِحَافِ امْرَأَةٍ مِنْكُنَّ غَيْرِهَا**».

نعم كان يحبها رسول الله ﷺ ويظهر هذا الحب، لكنه لم يظلم امرأة من نسائه، ولم يأمر الناس أن يتحروا بهداياهم يوم عائشة.

وكان رسول الله ﷺ فى مرضه يطوف على نسائه لكن حبه لعائشة جعله يسأل: أين أنا غدًا؟ أين أنا غدًا؟ فلما كان يوم عائشة سكن حيث قبضه الله تعالى فى يومها، ورأسه بين نحرها وسَحْرها، وجمع الله بين ريقه وريقها فى آخر ساعة من ساعاته فى الدنيا وأول ساعة من الآخرة، على صدرها مات، وفى بيتها دفن، فأى شرف هذا الذى نالته عائشة.

وأى يقين هذا الذى يدفع ابن عباس رضى الله عنهما ليقطع لها بدخول الجنة: (ياأم المؤمنين، تقدمين على فَرط صدق على رسول الله ﷺ وعلى أبى بكر).

وأى فضل يمكن أن تناله امرأة بعد ذكرها فى الملأ الأعلى: «**يَا عَائِشَ، هَذَا جِبْرِيلُ يُقْرِئُكِ السَّلَامَ** فترد: **وعليه السلام ورحمة الله وبركاته، ترى ما لا نرى**» تريد رسول الله ﷺ.

فمن هى صاحبة هذا الفضل؟

* إنها أم المؤمنين عائشة بنت أبى بكر الصديق القرشية، وأمها أم رومان بنت عامر بن عويمر الكنانية.

* ولدت بعد بعثة رسول الله ﷺ بأربع أو خمس سنين.

وزوَّج الله تعالى نبيه ﷺ بها؛ حيث وقعت له رؤيا فى المنام ثلاث ليال، وقد أتاه المَلَك بعائشة فى سَرَقة من حرير (القطعة من الحرير الأبيض) فيقول: هذه زوجتك. فإذا كشف رسول الله ﷺ عن وجهها إذا هى عائشة، فيقول الرسول الكريم: «إِنْ يَكُ هَذَا مِنْ عِنْدِ الله يُمْضِهِ» ومضت الأيام والرسول بلا امرأة بعد وفاة خديجة، أشارت عليه السيدة خولة بنت حكيم بأن يتزوج عائشة فخطبها من أبيها، فقال

أبوبكر: يا رسول الله أو تحل لك؟ قال: نعم. قال أولست أخاك؟ قال: «أَنْتَ أَخِي فِى دِينِ اللهِ وَكِتَابِهِ وَهِىَ لِى حَلَالٌ» فتزوجها رسول الله ﷺ بمكة فى شوال قبل الهجرة، وهى بنت ست سنين، وبَنى بها بالمدينة وهى بنت تسع سنين، وبقيت عنده تسع سنين، ولم يتزوج بكرًا غيرها، ولم يرزقها الله بولد، وكنَّاهَا رسول الله ﷺ بابن أختها أسماء سيدنا عبد الله بن الزبير فكانت تكنى بأم عبد الله.

استحقت عائشة رضى الله عنها ذلك الحب من النبى ﷺ ليس غرامًا بجمالها أو افتتانًا بأنوثتها فقد كان رسول الله ﷺ أملك لإِرْبه (فرجه) ولأرَبه (شهوته وحاجته للجماع) يأمن على نفسه ويتحكم فى ذاته، يحكم شهوته ولا تحكمه شهوته، وكانت عائشة تنام وهو مجتهد فى الطاعة، تؤثر هواه وقرة عينه الصلاة على هواها، والقرب منها، وتشفق عليه، فالله قد غفر له ما تقدم من ذنبه وما تأخر، لكن رسول الله ﷺ يأخذ بيدها إلى مدارج السالكين ومنازل الصديقين الذين اتصفوا بالعبودية الحقة، وتحلوا بالشكر الجزيل للملك الجليل «**يَا عَائِشَةُ أَفَلَا أَكُونُ عَبْدًا شَكُورًا**».

* وهكذا تقلبت عائشة من بيت كريم، وانتقلت من أسرة الصدِّيق الفاضلة إلى مدرسة النبى محمدٍ ﷺ الراقية، فنهلت من معين النبوة الذى لا ينضب، وحرصت كل الحرص على أن لا يفوتها شيء تقدر على معرفته حتى ولو لم تعايشه، وكأن الله تعالى اقتضت مشيئته أن تكون أم المؤمنين عائشة رضى الله عنها ترجمان رسول الله ﷺ، والناطق بسيرته فى بيته لتتأسى به أمته، فتروى عنه كيف كان بدء الوحى إليه ﷺ، وتخبرنا عن طهارته وأحواله مع أهله وتجمع لنا كثيرًا من سنته بما يشرح صدورنا إلى الحق، ويعيننا على الإحاطة بسنته والعمل بشريعته. وكانت مرجع الصحابة فى حياة رسول الله ﷺ وبعد مماته يسألونها عن أحكام الإسلام، وعن عبادة رسول الله ﷺ.

يقول سيدنا أبو موسى الأشعرى رضى الله عنه: ما أشكل علينا - أصحاب رسول الله ﷺ - حديث قطّ فسألنا عائشة عنه إلا وجدنا عندها منه علمًا. ويقول أحد التابعين: نحلف بالله، لقد رأينا الأكابر من أصحاب رسول الله ﷺ يسألون عائشة عن الفرائض.

ولم تقف عائشة عند علم، بل تبحرت فيما أتيح لها من معرفة، فكانت من أعلم الناس بالقرآن والمواريث والحلال والحرام والشعر وحديث العرب والنسب والطب.

يقول سفيان بن عُيينة عن الزهرى: لو جُمع علم عائشة إلى علم جميع أزواج النبى ﷺ وجميع النساء كان علم عائشة رضى الله عنها أكثر.

وتلك حقيقة، فلم يرو أحد أحاديث مثلها؛ إلا أبا هريرة فكانت أكثر الصحابة رواية للحديث بعده، حيث روت ألفين ومائتين وعشرة أحاديث (2210).

لقد أفرد لها الإمام الذهبى فى كتابه (سير أعلام النبلاء) قريبًا من سبعين صفحة؛ بما يدل على مكانتها ومنزلتها، فلقد استطاعت عائشة أن تُسجِّل اسمها فى سجل الخالدات، واجتهدت أن تترجم هذا العلم إلى عمل، وتلك المعرفة إلى واقع، فكانت لها مواقف خالدة نذكر منها على سبيل المثال لا الحصر:

* جهادها فى سبيل الله تعالى حيث ضربت عائشة رضى الله عنها المثل الكامل فى ضروب الجهاد، حيث عملت على رعاية زوجها، وطاعة حبيبها سيدنا محمد ﷺ القائل: «**أَنَّ طَاعَةَ الزَّوْجِ وَاعْتِرَافًا بِحَقِّهِ يَعْدِلُ ذَلِكَ (الجهاد بالسيف) وَقَلِيلٌ مِنْكُنَّ مَنْ يَفْعَلُهُ**»[1].

وخرجت أم المؤمنين عائشة غير مرة وشاركت على أرض المعركة جند الله، ففى غزوة أُحد كانت تنقل القرب وأوعية الماء واللبن على ظهرها، ثم تسقى القوم وتخدمهم

(1) رواه البزار كما فى كشف الأستار (2 ص181 رقم 1474) ، والديلمى (5 ص399).

وتقوم على شؤونهم، ولا ننسى أنها ابتليت أعظم ابتلاء وهى تشارك المسلمين إحدى غزواتهم حين رجع النبى الكريم من غزوة بنى المصطلق وتُسمى بغزوة المريسيع، وكانت فى شعبان من العام الخامس للهجرة، لقد امتحنت السيدة عائشة بل امتحن بيت النبوة امتحانًا شاقًّا، وابتلى ابتلاءً عظيمًا، حيث رُميت أم المؤمنين عائشة واتهمت أفظع تهمة مع أحد الصحابةِ الأخيار سيدنا صفوان بن المعطل السلمى، وتولى المنافقون وعلى رأسهم عبد الله بن أُبى ابن سَلُول كِبر هذه التهمة وأمر هذا الإفك وذلك البهتان، بعد أن بات الجيش على مسافة من المدينة وكان مع الرسول عائشة وأم سلمة ثم ذهبت تقضى حاجتها فجاوزت الجيش، وفى عودتها أحست أنها فقدت عقدًا لها فرجعت إلى مكان حاجتها، وفى هذه الأثناء أمر الجيش بالرحيل وحمل هودج عائشة على البعير وهى قليلة اللحم آنذاك خفيفة المحمل؛ فلم يشعر بفقدها، ولما عادت لم تجد أحدًا فظلت مكانها وغلبها النوم وجاء صفوان وهو على ساقة (مؤخرة) الجيش، يتعقبون آثاره، فرأى سواد إنسان نائم، فلما دنا وعرف أنها أم المؤمنين رفع صوته قائلًا: إنا لله وإنا إليه راجعون، فاستيقظت على صوته وخَمَّرت وجهها بجلبابها، وصمت صفوان بعد ذلك فلم يزد على أن أناخ راحلته وقال: أمه قومى فاركبى، ثم أدرك الجيش فهلك من هلك بالقول والافتراء.

ثم برأها الله فشرح صدر النبى والمؤمنين بهذه البراءة وأنزل فيها قرآنًا يتلىٰ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ جَآءُو بِٱلْإِفْكِ عُصْبَةٌ مِّنكُمْ ۚ لَا تَحْسَبُوهُ شَرًّا لَّكُم ۖ بَلْ هُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ۚ لِكُلِّ ٱمْرِيٍٕ مِّنْهُم مَّا ٱكْتَسَبَ مِنَ ٱلْإِثْمِ ۚ وَٱلَّذِى تَوَلَّىٰ كِبْرَهُۥ مِنْهُمْ لَهُۥ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ [النور:11] إلى بقية الآيات العشر من سورة النور.

* وأم المؤمنين عائشة نموذج للتقوى، ومثال للزهد والكرم، فما أصبرها على نفسها! وهى تصوم الدهر ولا تفطر إلا فى العيدين، وهى تقوم الليل تصلى وتبكي! ما أصبرها على نفسها!

وهى تقسم آلاف وترقع درعها (قميصها)، بل لا تتذكر أن تفطر على طعام شهى يبعث إليها ابن الزبير بمال بلغ نحو ثمانين ومائة ألف، فدعت بطبق وهى صائمة فجلست تقسمه فأمست وما عندها من ذلك درهم؛ فلما أمست قالت لجاريتها: هلمى أى أحضرى فِطْرى، فجاءتها بخبز وزيت. فقالت لها: أم ذرة. وكانت تزورها أما استطعت مما قسمت اليوم أن تشترى لنا بدرهم لحمًا نفطر عليه؟ فقالت لها: لا تعنفينى لو كنت ذكرتنى لفعلت.

وبعد حياة حافلة توفيت أم المؤمنين عائشة رضى الله عنها فى ليلة الثلاثاء لسبع عشرة خلت من رمضان، سنة ثمان وخمسين من الهجرة، وهى ابنة ست وستين سنة، وصلّى عليها أبو هريرة، ودفنت بالبقيع.

هذه عائشة، فإن قال قائل: تزوجها صغيرة، ونجيب:

1- لو كان هذا أمرًا منكرًا فى ذلك العصر، لما سكت أحد، وهناك الكثيرون المتربصون برسول الله، لينالوا منه ومن دعوته.

2- كانت عائشة مخطوبة قبل رسول الله ﷺ لجبير بن مطعم بن عدى الذى حلَّ نفسه من تلك الخطبة، فلِمَ لَمْ يشر أحد إلى ذلك، وأن هذا أمر مقبول فى ذلك الوقت، وقد فعلته صفية بنت حيي وغيرها من النساء.

3- كانت الفتاة عاقلة رشيدة تربت على إقامة أسرة، وإنشاء بيت، وتقدير حق الزوج، فأولى بالإنسان أن يدرس طبيعة العصر حتى لا يخرج عن الحق، ولا يقيس الفتاة فى أوروبا بالفتاة فى آسيا أو أفريقيا، فلكل بلد خصائصه، ولكل مجتمع سماته، ولكل عصر مميزاته.

4ـ أم المؤمنين السيدة حفصة بنت عمر بن الخطاب رضى الله عنهما[1].

ما زلنا فى بيت النبوة الشريف نعيش أجمل اللحظات، ونرقب أصعب المواقف، ونقتبس من أنوار النبوة ما يهدينا إلى الحق، ويأخذ بأيدينا إلى منازل الصدِّيقين والصدِّيقات وحسن أولئك رفيقًا، ونتعرف على أمهات المؤمنين ، وندفع عن رسول الله ما يقال عنه.

فى بيت النبوة عاشت حفصة، ونالت شرف (أم المؤمنين) وارتقت إلى أعلى عليين، ولم لا؟ فإنها صوامة قوامة، تصوم النهار، وتقوم الليل، وهى زوجة النبى عليه الصلاة والسلام فى الجنة كما أخبر بذلك الروح الأمين جبريل عليه السلام.

التعريف بها:

حفصة بنت عمر بن الخطاب أمير المؤمنين، وأمها زينب بنت مظعون، ولدت قبل المبعث النبوى بخمس سنين، ونشأت فى بيت ورع وتقوى وزهد وعفاف وشجاعة وجهاد؛ فأمها زينب كانت من المهاجرات إلى المدينة مع زوجها سيدنا عمر، وولدهما عبد الله شقيق حفصة، والمشهور بالورع والعلم وتحرِّى الاتباع لآثار رسول الله ﷺ.

وأخوال حفصة أصحاب فضل وسابقة فى الإسلام، وتحمل الأذى فى سبيل الله تعالى. فمن أخوالها: عثمان بن مظعون، أسلم بعد ثلاثة عشر رجلًا، وهاجر إلى الحبشة مع ابنه السائب وأخويه قُدامة وعبد الله ابنى مظعون خالى حفصة.

أسرة كريمة من جهة الأب ومن جهة الأم، نال أفرادها شرف الجهاد فى سبيل الله تعالى، وحسْب حفصة شرفًا ومكانة أن شهد أبوها وعمها زيد بن الخطاب

(1) راجع: سير أعلام النبلاء: (2 ص 227)، طبقات ابن سعد (8 ص 81)، الإصابة: (8 ص51).

وأخوالها عثمان وقدامة وعبد الله، وابن خالها السائب بن عثمان غزوة بدر، وفى أهل بدر يقول الرسول الكريم:

«لَعَلَّ اللهَّ اطَّلَعَ إِلَى أَهْلِ بَدْرٍ فَقَالَ: اعْمَلُوا مَا شِئْتُمْ؛ فَقَدْ وَجَبَتْ لَكُمْ الْجَنَّةُ؛ أَوْ فَقَدْ غَفَرْتُ لَكُمْ»[1].

زواج حفصة قبل رسول الله ﷺ:

تزوجت حفصة سيدنا خنيس بن حذافة السهمى، كان من السابقين، وهاجر إلى الحبشة ثم رجع فهاجر إلى المدينة وشهد بدرًا، وأصابته جراحة يوم أحد فمات منها سنة ثلاث هجرية، وقيل غير ذلك ودفن بالمدينة؛ فتأيمت حفصة وأصبحت بلا زوج فعوّضها الله بخير الأزواج رسول الله ﷺ.

زواج حفصة برسول الله ﷺ:

خطب رسول الله ﷺ حفصة ابنة سيدنا عمر تكريمًا له وخير مكافأة لجهوده، فوطَّد بذلك أواصر الصلة، وروابط الوحدة كما صنع مع الصديق أبى بكر، وكان لزواج حفصة قصة ظريفة نقدمها للمجتمع المسلم لكى يغيِّر من عاداته السيئة وتقاليده البالية:

يقول عبد الله بن عمر أخو حفصة: تأيمت حفصة بنت عمر من خنيس بن حذافة السهمى وكان من أصحاب رسول الله ﷺ فتوفى بالمدينة، فقال عمر بن الخطاب: أتيت عثمان بن عفان فعرضت عليه حفصة فقال: سأنظر فى أمرى، فلبثت ليالى ثم لقينى فقال: قد بدا لى أنْ لا أتزوج يومى هذا. قال عمر: فلقيت أبا بكر الصديق فقلت: إن شئتَ زوجتُك حفصة بنت عمر، فصمت (سكت) أبو بكر فلم يرجع إلى شيئًا وكنت أوجد (أشد غضبًا) عليه منى على عثمان، فلبثت ليالى ثم

(1) رواه البخارى كتاب المغازى، باب: فضل من شهد بدرًا رقم (3983).

خطبها رسول الله ﷺ فأنكحتها إياه، فلقينى أبوبكر، فقال: لقد وجدت (غضبت) حين عرضتَ على حفصة فلم أرجع إليك شيئًا (أى لأعد عليك الجواب وسكتُّ) قال عمر: قلت: نعم، قال أبو بكر: فإنه لم يمنعنى أن أرجع إليك فيما عرضت على إلا أنى كنت علمت أن رسول الله ﷺ قد ذكرها فلم أكن لأفشى سرَّ رسول الله ﷺ، ولو تركها رسول الله ﷺ قبلتها (تزوجتها)...

الله الله!! ما أجمل هذا الخلق وما أروعه!، وأين نحن من هذا المجتمع الفاضل الذى لايجد فيه الرجل حرجًا فى عرض ابنته وغيرها ممن يتولى أمرهن على من يعتقد خيره وصلاحه لما فيه من النفع العائد على المعروضة عليه، ولا استحياء فى ذلك حتى ولو كان الذى تعرض عليه متزوجًا؛ لأن أبا بكر كان حينئذ متزوجًا.

حفصة فى بيت النبى ﷺ

ما كان أحد أحسن خلقًا من رسول الله ﷺ كما أخبر الله عنه: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾ [القلم:4] فكان رسول الله ﷺ خير الناس لأهله، ويتبين لنا ذلك من خلال معاملاته لأزواجه، فها هى أم المؤمنين حفصة رضى الله عنها فى بيت النبى ﷺ - رغم فضلها - ونساء النبى كُنَّ يراجعن رسول الله، ولنترك سيدنا عمر يقص علينا ذلك:

كنت أنا وجار لى من الأنصار (أوس بن خولى) فى بنى أمية بن زيد (من الأوس) وهم من عوالى المدينة (قرى بقرب المدينة مما يلى المشرق وكانت منازل الأوس) وكنا نتناوب النزول على النبى ﷺ فينزل يومًا وأنزل يومًا فإذا نزلت جئته بما حدث من خبر ذلك اليوم من الوحى أو غيره، وإذا نزل فعل مثل ذلك. وكنا معشر قريش نغلب النساء (أى نحكم عليهن ولا يحكمن علينا) فلما قدمنا على الأنصار إذ هم قوم تغلبهم نساؤهم، فطفق نساؤنا يأخذن من أدب نساء الأنصار (أى أخذ نساء المهاجرين فى تعليم ذلك من التدخل فى أمور الرجال كنساء الأنصار) فصخبت على امرأتى فراجعتنى.

وفى رواية: بينما أنا فى أمر أتأمره أى أتفكر فيه وأقدره فقالت امرأتى: لو صنعت كذا وكذا، فأنكرت أن تراجعنى فقلت لها: وما تكلفك فى أمر أريده؟ فقالت: عجبًا لك يا ابن الخطاب، تقول لى هذا وابنتك تؤذى رسول الله ﷺ؟ يا ابن الخطاب: ما يستطيع أحد أن يكلمك وابنتك تكلم رسول الله ﷺ حتى يظل غضبان، ولم تنكر ذلك أن أراجعك؟ فوالله إن أزواج النبى ﷺ ليراجعنه، وإن إحداهن لتهجره اليوم حتى الليل؛ فأفزعنى ذلك وقلت لها: قد خابت مَن فعل ذلك منهن، ثم جمعت على ثيابى فنزلت فدخلت على حفصة فقلت لها: أى حفصة أتغاضب إحداكن النبى ﷺ اليوم حتى الليل؟ قالت: نعم فقلت: قد خبت وخسرت، أفتأمنين أن يغضب الله لغضب رسول الله فتهلكي؟ لا تستكثرى النبى ﷺ (لا تطلبى منه الكثير ولا تكلميه فإنه رسول الله ليس عنده دنانير ولا دراهم فما كان لك من حاجة حتى دهنة فسلينى، ولا تراجعيه فى شيء (ولا تردى عليه قوله) ولا تهجريه (ولو هجرك) وسلينى ما بدا لك ولا يغرنك أن كانت جارتك أوضأ منك وأحبَّ إلى النبى ﷺ يريد عائشة... ومضت الأيام وبلغ عمر أن رسول الله ﷺ اعتزل نساءه.

يقول عمر: فقلت: خابت حفصة وخسرت قد كنت أظن هذا يوشك أن يكون، فجمعت على ثيابى فصليت صلاة الفجر مع النبى ﷺ فدخل النبى ﷺ مُشربة له (الغرفة العالية) فاعتزل فيها ودخلت على حفصة فإذا هى تبكى فقلت: ما يبكيك؟ ألم أكن حذَّرتك هذا؟ أطلقكن النبى ﷺ؟ قالت: لا أدرى... اعتزل النبى ﷺ نساءه شهرًا لجملة من الأسباب، ومجموعة من الأشياء منها: الحديث الذى أفشته حفصة إلى عائشة وقصته ترويه أم المؤمنين عائشة بقولها: (إن النبى ﷺ كان يمكث عند زينب ابنة جحش ويشرب عندها عسلًا، فتواصيت أنا وحفصة على أيتنا دخل عليها النبى ﷺ فلتقل: إنى لأجد ريح مغافير، أكلت مغافير؟ (صمغ حلو له رائحة كريهة) فدخل على إحداهما (حفصة) فقالت له: ذلك. فقال: لا بأس، شربت عسلًا

عند زينب ابنة جحش ولن أعود له (فنزلت) ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَآ أَحَلَّ ٱللَّهُ لَكَ... ﴾ [التحريم:1] إلى ﴿إِن تَتُوبَآ إِلَى ٱللَّهِ ﴾ [التحريم:4] لعائشة وحفصة، ﴿وَإِذْ أَسَرَّ ٱلنَّبِيُّ إِلَىٰ بَعْضِ أَزْوَٰجِهِۦ حَدِيثًا﴾ [التحريم:3] لقوله: بل شربت عسلًا، وجملة القول: كانت حفصة فى حزب عائشة وكانتا يدًا واحدة ومعهما سودة وصفية، والباقيات فى حزب آخر، وهذا له دلالته من غلبة الطبع عليهن فى الغيرة عليه ومحاولة الاستئثار به ﷺ.

وإن كان يُروى أن رسول الله ﷺ أراد أن يطلق حفصة فجاء جبريل عليه السلام فقال: لاتطلقها فإنها صوامة، وإنها زوجتك فى الجنة، ويُروى أن رسول الله طلقها ثم راجعها رحمة لعمر.

ويستفاد من هذه الروايات الصبر على الزوجة، والصفح عما يقع منها من زلل ومغاضبة، وأن شدة الوطأة على النساء مذموم، وإبراز صورة رسول الله ﷺ فى معاشرته لحفصة وسائر نسائه وهى صورة إنسان كريم جليل عظيم يُزاول إنسانيته فى الوقت الذى يزاول فيه نبوته، فاستطاع أن يُعيد لبيته استقراره بتوجيه ربه.

ومع استقرار بيت النبوة صحب رسول الله ﷺ أزواجه معه فى حجة الوداع فكنَّ خير ناقل لهدى رسول الله ﷺ.

وبلغت مرويات أم المؤمنين حفصة عن رسول الله ﷺ ستين حديثًا، اتفق البخارى ومسلم على ثلاثة، وانفرد البخارى بخمسة، ومسلم بستة، وروىٰ عنها جماعة من الصحابة والتابعين.

ومضت أم المؤمنين حفصة بعد رسول الله ﷺ تؤدى دورها فى خدمة الإسلام، فكانت موضع الاحترام وأهل المشورة والأمانة، فهذا أبوها عمر فى خلافته خرج ذات ليلة يطوف بالمدينة وكان يفعل ذلك كثيرًا إذ مرَّ بامرأة من نساء العرب مغلقًا عليها بابها وهى تقول:

تطاول هـذا الليـل تـسرى كواكبـه   وأرَّقـــنى أن لا ضـــجيع ألاعبـــه
فــوالله لــولا الله تخــشنى عواقبــه   لزحــزح مــن هــذا الــسرير جوانبـه
ولكننــى أخــشى رقيبًــا مــوكلًا   بأنفــسنا لا يفــتر الــدهر كاتبــه
مخافــة ربــى والحيــاء يــصدنى   وأكــرِمُ بعــلى أن ينــال مراتبــه

فَسَبَّب هذا همًّا لعمر، وبعث إلى زوجها ليعود، وطلب من المرأة أن تملك نفسها، ثم سأل حفصة: كم تشتاق المرأة إلى زوجها؟ فخفضت رأسها واستحيت، قال:

فإن الله لا يستحى من الحق، فأشارت بيدها ثلاثة أشهر، وإلا فأربعة أشهر.

فكتب عمر أن لا تحبس الجيوش فوق أربعة أشهر.

وبعد وفاة عمر كانت حفصة موضع الثقة للصحف التى جُمع فيها القرآن بعد أبى بكر وعمر، وهى النسخة التى اعتمدها عثمان بن عفان فيها بَعد وجمع عليها المسلمون.

وبعد حياة حافلة بالصلاة والصيام والاجتهاد فى العبادة والطاعة توفيت أم المؤمنين حفصة فى شعبان سنة خمس وأربعين فى خلافة معاوية، وصلَّى عليها مروان ابن الحكم أمير المدينة، وهى ابنة ثلاث وستين سنة...

رضى الله عن أم المؤمنين حفصة بنت عمر.

أين مكان الشهوة فى زواج الرسول الكريم بالسيدة حفصة؟؟!

5ـ أم المؤمنين السيدة زينب بنت خزيمة رضى الله عنها[1].

إنها أم المساكين، وأم المؤمنين التى عاشت مع رسول الله ﷺ نحو ثلاثة أشهر، ثم توفيت.

إنها زينب بنت خزيمة بن الحارث بن عبد الله الهلالية، تزوجت عبد الله بن جحش فاستشهد يوم أحد؛ فأكرمها رسول الله ﷺ بزواجه منها مواساة لها، وكان دخوله بها فى رمضان سنة 3 هجرية بعد دخوله على حفصة بنت عمر، ثم لم تلبث أم المؤمنين زينب عند رسول الله ﷺ إلا نحو ثلاثة أشهر ثم توفيت وهى أخت أم المؤمنين ميمونة لأمها.

وكانت يقال لها أم المساكين؛ لأنها كانت تطعمهم وتتصدق عليهم، ولكثرة معروفها، وحسب المرأة المسلمة أن تتأسى بها فى هذا الجانب فتتدفق حنانًا وعطفًا، وإطعامًا للمحتاجين، وإشباعًا للمساكين، ومعروفًا للسائلين.

رضى الله عن أم المؤمنين زينب فى الأولين والآخرين.

(1) راجع: سير أعلام النبلاء: (2 ص 218)، طبقات ابن سعد (8 ص 115)، الإصابة: (8 ص 94).

6ـ أم المؤمنين السيدة أم سلمة رضى الله عنها[1].

إذا كان هناك من سجل اسمه التاريخ عنوانًا للتضحية من أجل المبدأ، ورمزًا للوفاء، وتجسيدًا لمكارم الأخلاق.

فلا شك أن أم المؤمنين السيدة أم سلمة رضى الله عنها تأتى فى الطليعة الأولى من هؤلاء.

وفيما يلى التعريف بها:

أم سلمة هى: هند بنت أبى أمية بن المغيرة بن عبد الله بن عمرو بن مخزوم القرشية المخزومية.

نشأت أم سلمة فى أسرة كريمة شريفة؛ فأبوها يلقب بزاد الراكب أو الركب؛ لأنه كان أحد الأجواد، فكان إذا سافر لا يترك أحدًا يرافقه ومعه زاد، بل يكفى رفقته من الزاد. وأمها عاتكة بنت عامر بن ربيعة بن مالك الكنانية من بنى فراس.

وكانت أم سلمة موصوفة بالجمال البارع، والعقل البالغ، والرأى الصائب..

عاشت أم سلمة قبل زواجها برسول الله ﷺ فى كنف زوجها وهو ابن عمها سيدنا أبى سلمة عبد الله بن عبد الأسد بن هلال بن عبد الله بن عمرو بن مخزوم، وهو فى نفس الوقت كان أخًا للنبى ﷺ من الرضاعة، وكان ابن عمة النبى ﷺ برة بنت عبد المطلب.

ضربت أم سلمة وأبو سلمة النموذج الرائع للأسرة المسلمة التى عاشت للإسلام تبذل النفس والنفيس من أجل نصرته وفرارًا بدينها الذى آمنت به.

أسلمت أم سلمة قديمًا هى وزوجها فكانا من السابقين إلى الإسلام، وتحملا الشدة والمعاناة فى مكة، ولنترك أم سلمة تصور لنا حجم هذه المعاناة بقولها:

(1) راجع: سير أعلام النبلاء: (2 ص201)، طبقات ابن سعد (8 ص 86)، الإصابة: (8 ص240).

«لما ضاقت مكة وأوذى أصحاب رسول الله ﷺ وفتنوا ورأوا ما يصيبهم من البلاء والفتنة، وأن رسول الله ﷺ لا يستطيع دفع ذلك عنهم، وكان رسول الله ﷺ فى منعة- أى قوة تمنع من يريده بسوء- من قومه ومن عمه، لا يصل إليه شيء مما يكره ومما ينال أصحابه فقال رسول الله ﷺ: «**إِنَّ بِأَرْضِ الْحَبَشَةِ مَلِكًا لَا يُظْلَمُ عِنْدَهُ أَحَدٌ فَأَلْحِقُوا بِبِلادِهِ حَتَّى يَجْعَلَ اللهُ لَكُمْ فَرَجًا وَمَخرجًا مِمَّا أَنْتُمْ فِيهِ**»، فخرجنا إليها أرسالًا -جماعة بعد جماعة- حتى اجتمعنا بها فنزلنا بخير دار إلى خير جار، آمنين على ديننا ولم نخش فيها ظلمًا...».

خرج أبو سلمة ومعه امرأته أم سلمة مع أول من هاجر إلى الحبشة وفى أرض الهجرة، ولدت سلمة وقد رزقهما الله تعالى بعد سلمة: عمر ودرة وزينب.

وبعد مدة فى أرض الحبشة بلغ أصحاب رسول الله ﷺ الذين خرجوا إلى أرض الحبشة إسلام أهل مكة فأقبلوا لما بلغهم من ذلك، حتى إذا اقتربوا من مكة بلغهم أن ما كانوا تحدثوا به عن إسلام أهل مكة كان باطلًا، فلم يدخل منهم أحد إلا بجوار - أى مستجيرًا - بمن يحميه أو مستخفيًا بحيث لا يراه أحد.

كان أبو سلمة فيمن دخل فى جوار أبى طالب عم رسول الله ﷺ وخال أبى سلمة، فلما استجار أبو سلمة بأبى طالب أجاره ومنعه من أن ينزل به سوءًا، فلما أذن الله تعالى لرسوله ﷺ فى الحرب: ﴿**أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَـٰتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا۟ ۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ**﴾ [الحج:39] وبايع رسول الله الأنصار من أهل يثرب على الإسلام والنصرة له ولمن اتبعه وأوى إليهم من المسلمين، أمر رسول الله ﷺ أصحابه المهاجرين من قومه ومن معه بمكة من المسلمين من الخروج إلى يثرب، وقال: «**إِنَّ اللهَ عَزَّ وَجَلَّ قَدْ جَعَلَ لَكُمْ إِخْوَانًا وَدَارًا تَأْمَنُونَ بِهَا**» فخرجوا جماعة بعد جماعة فكان أول من هاجر إلى المدينة من أصحاب رسول الله ﷺ من المهاجرين من قريش من بنى مخزوم - أبو سلمة هاجر، إلى المدينة قبل بيعة أصحاب العقبة بسنة،

وبعد وفاة أبى طالب حيث آذته قريش، فلما بلغه إسلام من أسلم من الأنصار خرج إلى المدينة مهاجرًا.

تقول أم سلمة: (لما أجمع أبو سلمة رضى الله عنه الخروج إلى المدينة رحل لى بعيره (وضع على ظهره الرحل وهو كالسرج للفرس) ثم حملنى عليه وجعل معى ابنى سلمة بن أبى سلمة فى حجرى (حضنى) ثم خرج يقود بى بعيره، فلما رأته رجال بنى المغيرة (أهلها) قاموا إليه فقالوا: هذه نفسك غلبتنا عليها، أرأيت صاحبتنا هذه علام نتركك تسير بها فى البلاد؟ قالت: فنزعوا خطام البعير (الحبل الذى يقاد به) من يده وأخذونى منه، قالت: وغضب عند ذلك بنو عبد الأسد رهط أبى سلمة وقالوا: والله لا نترك ابننا عندها إذ نزعتموها من صاحبنا. قالت: فتجاذبوا ابنى سلمة بينهم حتى خلعوا يده، وانطلق به بنو عبد الأسد، وحبسنى بنو المغيرة عندهم، وانطلق زوجى أبو سلمة إلى المدينة. قالت: ففرق بينى وبين ابنى وبين زوجى، قالت: فكنت أخرج كل غداة (صبح) فأجلس فى الأبطح (بمكة مسيل واديها: حى المعابدة حاليًا) فما أزال أبكى حتى أمسى سنة أو قريبًا منها، حتى مر بى رجل من بنى عمى أحد بنى المغيرة، فرأى ما بى، فرحمنى فقال لبنى المغيرة: ألا تخرجون هذه المسكينة، فرقتم بينها وبين زوجها وبين ولدها؟ قالت: فقالوا لى: الحقى بزوجك إن شئت. قالت: فرد بنو عبد الأسد إلى عند ذلك ابنى قالت: فارتحلت بعيرى ثم أخذت ابنى فوضعته فى حجرى ثم خرجت أريد زوجى بالمدينة، قال: وما معى أحد من خلق الله حتى إذا كنت بالتنعيم (مكان قريب من مكة) لقيت عثمان بن طلحة بن أبى طلحة أخا بنى عبد الدار فقال: إلى أين يا ابنة أبى أمية؟ قلت: أريد زوجى بالمدينة. قال: أو معك أحد قلت: ما معى أحد إلا الله وابنى هذا. فقال: والله مالك من مترك فأخذ بخطام البعير فانطلق معى يهوى بى فوالله ما صحبت رجلًا من العرب قط كان أكرم منه، كان إذا بلغ المنزل (المكان يستريحون فيه) أناخ بى ثم استأخر عنى حتى إذا نزلت دنا الرواح (اقترب الترحال)

قام إلى بعيرى فقدمه فرحله ثم استأخر عنى، وقال: اركبى فإذا ركبت فاستويت على بعيرى أتى فأخذ بخطامه فقادنى حتى ينزل بى، فلم يزل يصنع ذلك بى حتى أقدمنى المدينة، فلما نظر إلى قرية بنى عمرو بن عوف بقباء قال: زوجك فى هذه القرية، وكان أبو سلمة بها نازلًا - فادخليها على بركة الله، ثم انصرف راجعًا إلى مكة فكانت تقول: ما أعلم أهل بيت فى الإسلام أصابهم ما أصاب آل أبى سلمة، وما رأيت صاحبًا قط كان أكرم من عثمان بن طلحة).

لكِ الله يا أم سلمة، وجزاك الله عن الإسلام خيرًا! فإن تاريخ الإسلام سيظل يذكر تلك الملحمة الإنسانية الخالدة فى سبيل العقيدة التى يهون من أجلها كل شيء، وسيذكر بكل فخر أنك أول امرأة خرجت مهاجرة إلى الحبشة، وأول مسلمة دخلت المدينة مهاجرة.

عاشت أم سلمة مع زوجها أبى سلمة فى المدينة ورحلة الجهاد مستمرة، ويشهد أبو سلمة مع رسول الله ﷺ غزوة بدر وأحد، ويجرح فيها ثم بعثه النبى ﷺ على سرية إلى بنى أسد فى صفر سنة أربع، ثم رجع فانتقض جرحه بعد التئامه، فمات رضى الله عنه فى جمادى الآخرة، وكان النبى ﷺ يعوده ولما مات دعا له بقوله: **«اللَّهُمَّ اغْفِرْ لِأَبِى سَلَمَةَ وَارْفَعْ دَرَجَتَهُ فِى الْمَهْدِيِّينَ وَاخْلُفْهُ فِى عَقِبِهِ فِى الْغَابِرِينَ وَاغْفِرْ لَنَا وَلَهُ يَا رَبَّ الْعَالَمِينَ وَافْسَحْ لَهُ فِى قَبْرِهِ وَنَوِّرْ لَهُ فِيهِ»**.

تجملت أم سلمة بالصبر وتذكرت حديث رسول الله ﷺ الذى أخبرها به سيدنا أبوسلمة ذات يوم حين أتاها يومًا من عند رسول الله ﷺ قائلًا:

لقد سمعت من رسول الله ﷺ قولًا سررت به قال: « لَا تُصِيبُ أَحَدًا مِنْ الْمُسْلِمِينَ مُصِيبَةٌ فَيَسْتَرْجِعَ يقول (إنا لله وإنا إليه راجعون) عِنْدَ مُصِيبَتِهِ ثُمَّ يَقُولُ اللَّهُمَّ أْجُرْنِى فِى مُصِيبَتِى وَاخْلُفْ لِى خَيْرًا مِنْهَا إِلَّا فُعِلَ ذَلِكَ بِهِ » قالت أم سلمة: فحفظت ذلك منه، فلما توفى أبو سلمة استرجعت وقلت: اللهم أجرنى فى مصيبتى واخلف لى خيرًا منها، ثم

رجعت إلى نفسى فقلت: من أين لى، خير من أبى سلمة؟ فلما انقضت عدتى استأذن على رسول الله ﷺ وأنا أدبغ إهابًا (جلدًا) لى فقلتُ يدى من القَرَظ: (ورق يـدُبَغ بـه الجلـد). وأذنت له، فوضعت له وسادة أَدَم (جلد) حشوها ليف، فقعد عليها فخطبنى إلى نفسى، فلما فرغ من مقالته قلت: يا رسول الله ما بى أن لا تكون بك الرغبـة، ولكنـى امـرأة بـىَ غيرة شديدة، فأخاف أن ترى منى شيئًا يعذبنى الله به، وأنا امرأة قد دخلت فى السن، وأنا ذات عيال، فقال: «**أَمَّا مَا ذَكَرْتِ مِنْ الْغَيْرَةِ فَسَوْفَ يُذْهِبُهَا اللهُ عَـزَّ وَجَـلَّ مِنْـكِ وَأَمَّـا مَـا ذَكَرْتِ مِنْ السِّنِّ فَقَدْ أَصَابَنِى مِثْلُ الَّذِى أَصَابَكِ وَأَمَّا مَا ذَكَرْتِ مِـنْ الْعِيَـالِ فَـإِنَّمَا عِيَالُـكِ عِيَالِي**» فقالت: فقد سلمت لرسول الله ﷺ فقالت أم سلمة: فقد أبدلنى الله بـأبى سـلمة خيرًا منه رسول الله ﷺ..

كرم الإسلام أم سلمة وتزوجها رسول الله ﷺ مواساة لها وتكريمًا لزوجها القائد المجاهد الشهيد..

عاشت أم سلمة فى بيت النبى ﷺ وكانت فى النساء كأنها ليست فيهن لا تجد مـا تجـدن مـن الغـيرة، وتربـى أولاد أم سـلمة فى حجـر النبـى ﷺ فأحـاطهم بعنايتـه وشملهم برعايته وأدبهم بمكارم الأخلاق فى لطف ورحمة، فهذا عمر بن أبى سلمة غلام تطيش يده فى الإناء، وهو طفل صغير لا يعرف كيف يأكل فيوجهه رسول الله بأبوة حانية «ادْنُ يَا بُنَى (اقترب) وَسَمِّ اللهَ وَكُـلْ بِيَمِينِـكَ وَكُـلْ مِمَّـا يَلِيـكَ» ويحفـظ الصغير هذا الأدب الجميل، وينقله للأمة ليحفظه أبناؤها وبناتها، يبدءون طعـامهم ببسم الله، ويأكلون باليد اليمنى من الطعام الذى يليهم..

ضربـت أم سـلمة فى حيـاة الرسـول ﷺ وبعـد وفاتـه المثـل الرائـع فى مكـارم الأخلاق، والدروس النافعة للمرأة المسلمة على مر الأجيال.

برزت أم سلمة فى بيت النبوة علمًا وفضلًا، وإذا كان أزواج النبى ﷺ يحفظن من حديث النبى ﷺ كثيرًا، فقد تفوقـت عائـشة وأم سـلمة م فى روايـة الحـديث، أمـا عائشة فقد روى لها ألفا حديث ومائتان وعشرة.

أما أم سلمة فقد روى لها عن رسول الله ﷺ ثلاثمائة حديث وثمانية وسبعون حديثًا.

صور من حياة أم سلمة:

* تزوجت أم سلمة رسول الله ﷺ ودخلت عليه أول العشاء عروسًا وقامت من آخر الليل تطحن.

* ما أشارت به على رسول الله ﷺ بعد صلح الحديبية، وقد أراد رسول الله من أصحابه أن يقوموا فينحروا فلما لم يقم أحد دخل على أم سلمة فذكر لها ما لقى من الناس فقالت أم سلمة:

يا نبى الله أتحب ذلك؟ اخرج ثم لا تكلم أحدًا منهم حتى تنحر بدنك (إبلك)، وتدعو حالقك فيحلقك، فخرج فلم يكلم أحدًا منهم حتى فعل ذلك فلما رأوا ذلك قاموا فنحروا وجعل بعضهم يحلق بعضًا...

فكان نعم الرأى من أم سلمة يؤكد عقلها الراجح.

* عرفت أم سلمة فضل أهل بيت رسول الله ﷺ، وحقًا فإنه لا يعرف الفضل إلا أهل الفضل، ففى بيتها يطعم أهل بيت رسول الله ﷺ فاطمة والحسن والحسين وعلى وركها، ومعهم سيدنا على، وجلس النبى وهم يأكلون وبعد فراغهم التف عليهم بثوبه ثم قال: «اللهم عاد من عاداهم ووال من والاهم» فلم تسمح أم سلمة وقت الفتنة بين على ومعاوية أن يشتم أحد سيدنا عليًّا رضى الله عنه، وأنكرت أن يُسَب على.

وبعد حياة حافلة بالأحداث الجليلة والأعمال العظيمة توفيت أم المؤمنين أم سلمة رضى الله عنها، ودفنت بالبقيع وهى آخر أمهات المؤمنين وفاة رضى الله عنها عن عُمر يناهز التسعين سنة، سنة اثنتين وستين هجرية...

رضى الله عن أم المؤمنين أم سلمة.

7- أم المؤمنين السيدة زينب بنت جحش رضى الله عنها[1]:

ما أسعدها من امرأة، لا تنال شرف الزواج برسول الله ﷺ فحسب، بل يتولى تزويجها رب العباد من فوق سبع سماوات، فحق لها أن تفخر على أزواج النبى ﷺ وتقول: زوجكن أهاليكن وزوجنى الله - عز وجل- من فوق سبع سموات.

نسبها: زينب بنت جحش بن رئاب الأسدية، وأمها أميمة بنت عبد المطلب الهاشمية القرشية، فزينب ابنة عمة رسول الله ﷺ، وكانت زينب تُسمى برة، فسماها النبى زينب، وكانت تكنى بأم الحكم.

نشأتها: نشأت زينب فى أسرة كريمة شريفة أسلمت وجهها لله، وهاجر أفرادها ابتغاء مرضاة الله، وكان لهذه النشأة أثرها فى السيدة زينب جمالًا فى الخلق والخُلق، فكانت معتزة بجمالها، فخورة بنسبها، وكانت فيها حدة وغضب لكنها لا تلبث أن تفىء وترجع إلى السكون والهدوء.

زواجها بزيد بن حارثة:

لما تبنىٰ النبى ﷺ زيد بن حارثة زوجه بنت عمته السيدة زينب بنت جحش حيث كان زيد أحب الناس إلى رسول الله ﷺ وكان النبى ﷺ قد تبناه حين اختاره على أبيه وعمه وأهل بيته الذين جاءوا لإعتاقه، حيث أغارت جماعة على زيد وهو مع أمه فى قومها، فأخذوا زيدًا وهو غلام قريب من ثمانى سنوات، وباعوه فى سوق عكاظ، واشتراه حكيم بن حزام لعمته السيدة خديجة بأربعمائة درهم فلما تزوجها رسول الله ﷺ وهبته له، وفى موسم الحج حج ناس من كلب (قبيلة سيدنا زيد) فرأوه فعرفهم وعرفوه وأعلموا أباه، فخرج ومعه أخوه بفداء زيد، فقدما مكة فسألا عن النبى ﷺ فقيل هو فى المسجد، فدخلا عليه فقالا: يا ابن عبدالمطلب، يابن سيد قومه، أنتم أهل حرم الله تفكون العانى (الأسير)، وتطعمون الأسير، جئناك فى

(1) راجع: سير أعلام النبلاء: (2 ص 211)، طبقات ابن سعد (8 ص 101)، الإصابة: (8 ص 92).

ولدنا عندك؛ فامنن علينا وأحسن فى فدائه، فإنا سنرفع لك، قال: «وما ذاك؟» قالوا: زيد بن حارثة، فقال: «فَهَلَّا غَيْرَ ذَلِكَ؟ أَدْعُوهُ فَأُخَيِّرُهُ فَإِنْ اخْتَارَكُمْ فَهُوَ لَكُمْ وَإِنْ اخْتَارَنِى فَوَاَللهِ مَا أَنَا بِالَّذِى أَخْتَارُ عَلَى مَنْ اخْتَارَنِى أَحَدًا» فدعاه فقال: «هَلْ تَعْرِفُ هَؤُلَاءِ؟» قال: نعم، هذا أبى وهذا عمى، قال: «فَأَنَا مَنْ قَدْ عَلِمْتَ وَرَأَيْت وَعَرَفْتَ صُحْبَتِى لَكَ فَاخْتَرْنِى أَوْ اخْتَرْهُمَا» فقال زيد: ما أنا بالذى أختار عليك أحدًا، أنت منى بمكان الأب والعم، فقالا: ويحك يا زيد أتختار العبودية على الحرية، وعلى أبيك وعمك وأهل بيتك؟؟

قال: قد رأيت من هذا الرجل شيئًا ما أنا بالذى أختار عليه أحدًا.

فلما رأى رسول الله ﷺ ذلك أخرجه إلى الحجر (عند الكعبة) فقال: «أُشْهِدُكُمْ أَنَّ زَيْدًا ابْنِى يَرِثُنِى وَأَرِثُهُ» فلما رأى ذلك أبوه وعمه طابت أنفسهما وانصرفا، فدعى زيد ابن محمد، وتقلب زيد فى الرحمة المتدفقة والحب الوافر من الحبيب النبى ﷺ الذى أحاطه برعايته وشمله بكرمه وأبوته، وزوّجه بسيدة بنات عبد شمس، وسيدة قريش جمالًا وشرفًا ومكانة.

واستجابت السيدة زينب بعد امتناع، واستنكفت من زيد، وقالت: أنا خير منه حسبًا.

فقد روى فى هذا أن رسول الله ﷺ انطلق ليخطب لفتاه زيد بن حارثة رضى الله عنه فدخل على زينب بنت جحش الأسدية رضى الله عنها فخطبها فقالت: لست بناكحته. فقال رسول الله ﷺ: «بلى فانكحيه» قالت: يا رسول الله أؤامر نفسى؟ فبينما يتحدثان أنزل الله هذه الآية على رسول الله ﷺ قال تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ ۗ وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَٰلًا مُّبِينًا﴾ [الأحزاب:36].

أذعنت زينب وتزوجت زيدًا، وأصدقها عشرة دنانير، وستين درهمًا، وخمارًا،

وملحفة، ودرعًا وخمسين مدًا من طعام، وعشرة أمداد من تمر، فمكثت عنده قريبًا من سنة أو فوقها، ثم وقع بينهما ما كان سببًا فى طلاقها؛ حيث كانت تفخر عليه بحسبها، وتؤذيه بلسانها، وتعريضًا بنسبه، ولم يشأ زيد أن يفعل شيئًا إلا بعد استشارة الرسول ﷺ قائلًا له: يا رسول الله إن زينب تؤذينى بلسانها، وإنى أريد أن أطلقها فقال له الرسول: «**أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ وَاتَّقِ اللهَ**».

ولا ينبغى لنا أن نظلم السيدة زينب فى سلوكها مع سيدنا زيد؛ لأن القلوب بيد الله، فلم تستطع زينب وقد أسلمت جسدها لزيد أن تمنحه ودها، أو ينفتح له قلبها مع إذعانها لأمر ربها، والاستجابة لأمر نبيها.

واقتضت مشيئة الله أن تسير الأمور على هذا النحو لتحظىٰ السيدة زينب بشرف الزواج برسول الله ﷺ بعد الانتساب إليه.

السيدة زينب أم المؤمنين: أمر الله تعالى نبيه أن يتزوج السيدة زينب لما انقضت عدتها من سيدنا زيد قال تعالى: ﴿**فَلَمَّا قَضَىٰ زَيْدٌ مِّنْهَا وَطَرًا زَوَّجْنَـٰكَهَا لِكَىْ لَا يَكُونَ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ حَرَجٌ فِىٓ أَزْوَٰجِ أَدْعِيَآئِهِمْ إِذَا قَضَوْا۟ مِنْهُنَّ وَطَرًا ۚ وَكَانَ أَمْرُ ٱللَّهِ مَفْعُولًا**﴾ [الأحزاب:37].. لقد تحددت الحكمة من زواج النبى ﷺ من السيدة زينب رضى الله عنها وهى إبطال عادات الجاهلية، والآثار المترتبة عليها، فلقد سبق هذا الزواج حكم تشريعى يقتضى إنكار أن يكون للولد اثنان من الرجال آباء له، كما لا يكون للشخص الواحد قلبان، فكما أن للشخص قلبًا واحدًا فكذلك لابد أن يكون للولد أب واحد وليس اثنين، والواجب أن ينتسب كل واحد إلى والده الحقيقى فهذا هو الحق والعدل والصدق، فإن لم يعرف والده الحقيقى فهو أخ لنا فى الدين، وإن فاته النسب؛ فلن تفوته رابطة الدين، وما يترتب عليها من ولاء ونصرة وأخوة ومحبة وتكافل وتعاون.

قال تعالى: ﴿**مَّا جَعَلَ ٱللَّهُ لِرَجُلٍ مِّن قَلْبَيْنِ فِى جَوْفِهِۦ ۚ وَمَا جَعَلَ أَزْوَٰجَكُمُ ٱلَّـٰٓـِٔى**

تُظَٰهِرُونَ مِنْهُنَّ أُمَّهَٰتِكُمْ ۚ وَمَا جَعَلَ أَدْعِيَآءَكُمْ أَبْنَآءَكُمْ ۚ ذَٰلِكُمْ قَوْلُكُم بِأَفْوَٰهِكُمْ ۖ وَٱللَّهُ يَقُولُ ٱلْحَقَّ وَهُوَ يَهْدِى ٱلسَّبِيلَ ۝ ٱدْعُوهُمْ لِءَابَآئِهِمْ هُوَ أَقْسَطُ عِندَ ٱللَّهِ ۚ فَإِن لَّمْ تَعْلَمُوٓا۟ ءَابَآءَهُمْ فَإِخْوَٰنُكُمْ فِى ٱلدِّينِ وَمَوَٰلِيكُمْ ۚ وَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ فِيمَآ أَخْطَأْتُم بِهِۦ وَلَٰكِن مَّا تَعَمَّدَتْ قُلُوبُكُمْ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾ [الأحزاب:4-5].

أبطل الله تعالى التبنى، وهذا يعنى إبطال كل الآثار المترتبة عليه، ومنها: تحريم زواج الرجل بامرأة ولده الذى كان قد تبناه، وقد تعارف المجتمع على ذلك، وكان من الصعب على أى فرد أن يطبق على نفسه هذا الشيء، ولقد عاتب الله رسوله على هذا بقوله: ﴿وَتَخْشَى ٱلنَّاسَ وَٱللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخْشَىٰهُ﴾ [الأحزاب:37] كان لابد للرسول أن يطبق ما أمره الله به، فكان زواجه من زينب ابنة عمته وزوجة متبناه السابق زيد إعلانًا على مشروعية زواج الرجل بامرأة متبناه، وكان لزينب أن تفخر أن يطبق الله تعالى هذا الحكم عليها وتقول: إن الله – عز وجل – أنكحنى من السماء، وكان زواجها برسول الله فى شهر ذى القعدة من السنة الخامسة، وهى بنت خمس وثلاثين سنة.

فضائل أم المؤمنين زينب بنت جحش رضى الله عنها:

اختص الله تعالى السيدة زينب بفضائل متعددة خلاف ما ذكر، ومما اختصها الله تعالى بها:

أولًا: نزول آية الحجاب يقول أنس بن مالك: (لما تزوج رسول الله ﷺ زينب بنت جحش دعا القوم فطعموا ثم جلسوا يتحدثون، فإذا هو يتهيأ للقيام، فلم يقوموا، فلما رأى ذلك قام، فلما قام من قام قعد ثلاثة نفر فجاء النبى ﷺ ليدخل فإذا القوم جلوس، ثم إنهم قاموا فانطلقوا، فجئت فأخبرت النبى ﷺ أنهم قد انطلقوا فجاء حتى دخل فذهبت أدخل، فألقى الحجاب بينى وبينه فأنزل الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَدْخُلُوا۟ بُيُوتَ ٱلنَّبِىِّ إِلَّآ أَن يُؤْذَنَ لَكُمْ إِلَىٰ طَعَامٍ غَيْرَ

نَـٰظِرِينَ إِنَىٰهُ وَلَـٰكِنْ إِذَا دُعِيتُمْ فَٱدْخُلُوا۟ فَإِذَا طَعِمْتُمْ فَٱنتَشِرُوا۟ وَلَا مُسْتَـْٔنِسِينَ لِحَدِيثٍ ۚ إِنَّ ذَٰلِكُمْ كَانَ يُؤْذِى ٱلنَّبِىَّ فَيَسْتَحْىِۦ مِنكُمْ ۖ وَٱللَّهُ لَا يَسْتَحْىِۦ مِنَ ٱلْحَقِّ ۚ وَإِذَا سَأَلْتُمُوهُنَّ مَتَـٰعًا فَسْـَٔلُوهُنَّ مِن وَرَآءِ حِجَابٍ ۚ ذَٰلِكُمْ أَطْهَرُ لِقُلُوبِكُمْ وَقُلُوبِهِنَّ ۚ وَمَا كَانَ لَكُمْ أَن تُؤْذُوا۟ رَسُولَ ٱللَّهِ وَلَآ أَن تَنكِحُوٓا۟ أَزْوَٰجَهُۥ مِنۢ بَعْدِهِۦٓ أَبَدًا ۚ إِنَّ ذَٰلِكُمْ كَانَ عِندَ ٱللَّهِ عَظِيمًا ﴾ [الأحزاب:53].

ثانيًا: حفظها الله من الوقوع فى عائشة فى حادثة الإفك، رغم المنافسة الشديدة بينهما وتعترف أم المؤمنين عائشة بذلك بقولها: (كانت زينب بنت جحش هى التى كانت تساميني من أزواج النبى ﷺ فعصمها الله - عز وجل - بالورع، ولم أر امرأة أكثر خيرًا وأكثر صدقة وأوصل للرحم وأبذل لنفسها فى كل شيء يتقرب به إلى الله - عز وجل - من زينب، ما عدا سَوْرة من حدة كانت تُسرع منها الفيئة).

تلك هى مكارم الأخلاق بين الضرائر، رغم ما قد يحدث من تنافس طبيعى بينهن على الاستحواذ على الزوج ونيل رضاه واكتساب محبته، تقول أم سلمة: وكانت (زينب) لرسول الله ﷺ معجبة، وكانت صالحة صوامة قوامة تتصدق على المساكين.. رضى الله عن نساء النبى ﷺ.

ثالثًا: كانت أطول نساء النبى ﷺ يدًا، وفى هذا يقول الرسول الكريم «**أَسْرَعُكُنَّ لَحَاقًا بِي أَطْوَلُكُنَّ يَدًا**» فكان نساء النبى يتطاولن أيتهن أطول يدًا، وإذا اجتمعن فى بيت إحداهن بعد وفاة رسول الله ﷺ يمددن أيديهن فى الجدار، يتطاولن، فلم يزلن يفعلن ذلك حتى توفيت زينب بنت جحش وكانت امرأة قصيرة، ولم تكن بأطولهن فعرفن حينئذ أن النبى ﷺ إنما أراد طول اليد بالصدقة، وكانت زينب امرأة تعمل بيديها، فكانت تدبغ وتخرز وتتصدق به فى سبيل الله.

رابعًا: اتصفت رضى الله عنها بالزهد فكانت لا تملك مالًا إلا وتنفقه فى أبواب الخير، يُروى أن عطاءها الذى خُصص لها كان اثنى عشر ألفًا لم تأخذه إلا عامًا

واحدًا، فجعلت تقول: اللهم، لا يدركنى هذا المال من قابل (العام القادم)؛ فإنه فتنة، ثم قسمته فى أهل رحمها، وفى أهل الحاجة، فبلغ عمر فقال: هذه امرأة يراد بها خير. فوقف عليها وأرسل بالسلام وقال: بلغنى ما فرقت، فأرسل بألف درهم تستبقيها، فسلكت به ذلك المسلك - أى أنفقته أيضًا -.

وبعد هذه الحياة الحافلة بالورع والعبادة والإنفاق والزهد ماتت أم المؤمنين زينب بنت جحش سنة عشرين هجرية، وهى بنت خمسين سنة، ذهبت - كما قالت عائشة - حميدة متعبدة، مفزع اليتامى والأرامل...

رضى الله عن أم المؤمنين زينب بنت جحش.

8 ـ أم المؤمنين السيدة جويرية بنت الحارث رضى الله عنها[1]:

تقول أم المؤمنين عائشة رضى الله عنها فى شأن السيدة جويرية بنت الحارث: «فما أعلم امرأة أعظم بركة منها على قومها».

هى: جويرية بنت الحارث بن أبى ضرار الخزاعية المصطلقية بنت الحارث سيد بنى المصطلق من قبيلة خزاعة، وقد جمعت السيدة جويرية بين شرف النسب وعراقة الأصل، وبين جمال الشكل وحلاوة المنظر.

زواجها برسول الله ﷺ:

فى شعبان، فى السنة الخامسة بلغ رسول الله ﷺ أن (بنى المصطلق يجمعون له ويستعدون لقتاله وقائدهم الحارث بن أبى ضرار أبو السيدة جويرية، فلما سمع بهم رسول الله ﷺ خرج حتى لقيهم على ماء من مياههم يقال له: المريسيع، فتزاحم الناس واقتتلوا فهزم الله بنى المصطلق وقتل من قتل منهم، ونقل رسول الله ﷺ أبناءهم ونساءهم وأموالهم فأفاءهم عليه، وكان فيمن أصيب يومئذ من السبايا جويرية بنت الحارث، وقتل زوجها، ولندع السيدة جويرية تروى قصة زواجها برسول الله ﷺ حيث تقول: «رأيت قبل قدوم النبى ﷺ بثلاث ليال كأن القمر يسير من يثرب حتى وقع فى حجرى فكرهت أن أخبر به أحدًا من الناس، حتى قدم رسول الله ﷺ فلما سبينا رجوت الرؤيا، قالت: فأعتقنى رسول الله ﷺ وتزوجنى، والله ما كلمته فى قومى حتى كان المسلمون هم الذين أرسلوهم، وما شعرت إلا بجارية من بنات عمى تخبرنى الخبر، فحمدت الله تعالى».

وخرج الخبر إلى الناس أن رسول الله ﷺ قد تزوج جويرية بنت الحارث، فقال الناس: أصهار رسول الله ﷺ فأرسلوا ما بأيديهم.

---

(1) راجع: سير أعلام النبلاء: (2ص261)، طبقات ابن سعد (8ص116)، الإصابة: (8ص43).

لم يفرض رسول الله ﷺ نفسه على جويرية رضى الله عنها بل اختارت شرف الزواج به، وحين قال أبوها سيد بنى المصطلق لرسول الله: إن ابنتى لا يُسبى مثلها فخل سبيلها، فقال له النبى ﷺ: «**أَرَأَيْت إِنْ خَيَّرْتهَا أَلَيْسَ قَدْ أَحْسَنْت ؟**» قال: بلى. فأتاها أبوها فذكر لها ذلك، فقالت: اخترت الله ورسوله!!

تقول أم المؤمنين عائشة رضى الله عنها «فلقد أعتق بتزويجه إياها مائة أهل بيت من بنى المصطلق، فما أعلم امرأة أعظم بركة منها (وكان ذلك وهى بنت عشرين سنة».

لقد كانت الحروب سببًا فى سلب المرأة واستعبادها، وكان هذا أمرًا مألوفًا بين الناس آنذاك، لكن الإسلام وهو يتعامل مع هذه الأوضاع السائدة لم يتوان لحظة فى الحفاظ على كرامة الإنسان، ولقد بلغ نبل أخلاق المسلمين أنهم تركوا ما لديهم من سبايا (أسيرات) احترامًا لرسول الله ﷺ، فما كان لواحد منهم أن يسترق أحدًا ممن تزوج الرسول بنتهم، ولقد كان هذا الزواج الكريم من النبى الحكيم أن منحت هذه القبيلة العربية حريتها، ولم تمض شهور قليلة وكان صلح الحديبية فى ذى القعدة سنة ست ودخلت خزاعة كلها فى عقد رسول الله ﷺ وعهده، وتحالفت معه، وفى هذا الشأن، برزت قصة مشهورة، وحدث موقف مشهود، نترك صاحبه يتحدث عنه: فقد أخرج الإمام أحمد فى مسنده عن الحارث بن ضرار والد أم المؤمنين جويرية، وهو زعيم بنى المصطلق. قال: قدمت على رسول الله ﷺ فدعانى إلى الإسلام، فدخلت فيه، وأقررت به، ودعانى إلى الزكاة فأقررت بها، وقلت: يا رسول الله أرجع إليهم فأدعوهم إلى الإسلام، وأداء الزكاة فمن استجاب لى دفعت زكاته، وترسل إلى يا رسول الله رسولًا إبان (وقت) كذا وكذا، ليأتيك بما جمعت من الزكاة، فلما جمع الحارث الزكاة ممن استجاب له، وبلغ الإبان (الموعد المحدد) الذى أراد رسول الله أن يبعث إليه، احتبس عليه الرسول ولم يأته.

وظن الحارث أنه قد حدث فيه سخطة من الله تعالى ورسوله، فدعا بسروات قومه (أشرافهم) فقال لهم: إن الرسول صلى الله عليه وعلى آله وصحبه وسلم كان وقت لى وقتًا يرسل إلى رسوله، ليقبض ما كان عندى من الزكاة. وليس من رسول الله ﷺ وعلى آله وصحبه وسلم الخلف، ولا حبس رسوله إلا من سخطه فانطلقوا بنا نأتى رسول الله!

وبعث رسول الله ﷺ الوليد بن عقبة إلى الحارث ليقبض ما كان عنده مما جمع من الزكاة، فلما أن سار الوليد حتى بلغ بعض الطرق فرق -خاف- فرجع حتى أتى رسول الله ﷺ فقال: يارسول الله إن الحارث قد منعنى الزكاة وأراد قتلى، فغضب رسول الله وبعث البعث إلى الحارث رضى الله عنه وأقبل الحارث بأصحابه حتى إذا استقبل البعث وفصل عن المدينة، لقيهم الحارث، فقالوا: هذا الحارث فلما غشيهم قال لهم: على من بعثتم؟ قالوا: إليك. قال: ولم؟ قالوا: إن رسول الله بعث الوليد بن عقبة رضى الله عنه فزعم أنك منعته الزكاة وأردت قتله: فقال رضى الله عنه: لا، والذى بعث محمدًا بالحق ما رأيته بتة (أبدًا) ولا أتانى، فلما دخل الحارث على رسول الله قال: منعت الزكاة وأردت قتل رسولي؟ قال: لا، والذى بعثك بالحق ما رأيته ولا أتانى وما أقبلت إلاحين احتبس على رسول الله ﷺ، خشيت أن يكون كانت سخطة من الله تعالى ورسوله، قال: فنزلت الحجرات: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن جَآءَكُمۡ فَاسِقُۢ بِنَبَإٖ فَتَبَيَّنُوٓاْ أَن تُصِيبُواْ قَوۡمَۢا بِجَهَٰلَةٖ فَتُصۡبِحُواْ عَلَىٰ مَا فَعَلۡتُمۡ نَٰدِمِينَ﴾ [الحُجُرات: 6] إلى قوله: ﴿فَضۡلٗا مِّنَ ٱللَّهِ وَنِعۡمَةٗۚ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٞ﴾ [الحُجُرات:8].

إن الدلالات فى هذا الموقف كثيرة، لعل أبرزها فيما يتعلق بموضوعنا أن بنى المصطلق أسرة السيدة جويرية صدقوا الله ورسوله، وكان زواج النبى من جويرية سندًا قويًا لنصرة الإسلام وتنفيذ شرعه، والتزام أحكامه وأظهرت خزاعة ولاءها للإسلام وللمسلمين، وكان الاعتداء على خزاعة سببًا فى فتح مكة، ودخول الناس

فى دين الله أفواجًا، وانطلقت كتائب التوحيد تدك حصون المشركين، وترفع راية الحق والدين.

فما أعظم بركة أم المؤمنين جويرية على قومها، وما أعظم بركتها على المسلمين!!

جويرية فى بيت النبى ﷺ:

كان اسم السيدة جويرية برة فغيره رسول الله ﷺ وسماها جويرية، كره أن يقال: خرج من عند برة.

وهذا أدب إسلامى ينبغى أن نتحلى به، ففى الحديث الشريف: «**إِنَّكُمْ تُدْعَوْنَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ بِأَسْمَائِكُمْ وَأَسْمَاءِ آبَائِكُمْ فَأَحْسِنُوا أَسْمَاءَكُمْ**» وكان رسول الله ﷺ يغير الاسم القبيح، فسمى العاص هشامًا، وسمى حربًا سلمًا، ونهى عن تسمية يسار ورباح ونجيح وأفلح حتى لا يقال: أهناك يسار مثلًا؟ فيقول: لا.

كانت السيدة جويرية مجتهدة فى الطاعة، حريصة على الذكر والعبادة، فقد ثبت أن رسول الله ﷺ خرج من عندها وهى تسبح، ثم انطلق لحاجته غدوة -أول النهار- ثم رجع قريبًا من نصف النهار -ضحى- فقال: «**مَا زِلْتِ عَلَى حَالِكِ؟**» قالت: نعم. قال: «**أَلَا أُعَلِّمُكِ كَلِمَاتٍ تَعْدِلُهُنَّ بِهِنَّ وَلَوْ وُزِنَ بِهِنَّ وُزِنَ**» يعنى: جميع ما سبحت: «**سُبْحَانَ اللهِ رِضَا نَفْسِهِ سُبْحَانَ اللهِ رِضَا نَفْسِهِ سُبْحَانَ اللهِ زِنَةَ عَرْشِهِ سُبْحَانَ اللهِ زِنَةَ عَرْشِهِ سُبْحَانَ اللهِ زِنَةَ عَرْشِهِ سُبْحَانَ اللهِ مِدَادَ كَلِمَاتِهِ سُبْحَانَ اللهِ مِدَادَ كَلِمَاتِهِ سُبْحَانَ اللهِ مِدَادَ كَلِمَاتِهِ**» ثلاث مرات.

ودخل عليها رسول الله ﷺ وهى صائمة يوم جمعة ولم تصم يومًا قبله أو بعده، فأمرها بأن تفطر، فلا يجوز إفراد يوم الجمعة بصيام إلا مع يوم الخميس، أو يوم السبت، وعاش النبى ﷺ فى بيته عيشة الزاهدين، ونقلت عنه نساؤه قناعته ورضاه بأقل الطعام وأيسره، مع ما فتح الله عليه من أبواب الدنيا من الفتوح والمغانم والفيء والهدايا.

عــاشت جويريـــة فى بيت النبى ﷺ تنهل من علمه وتحفظ للأمة سنته، ويروى عنها ابن عباس وجابر وابن عمر وآخرون.

وبعد حياة طويلة ماتت أم المؤمنين جويرية وهى بنت خمس وستين سنة، فى عـام خمسين، وقيل: سنة ست وخمسين...

رضى الله عن أم المؤمنين جويرية.

9ـ أم المؤمنين (أم حبيبة) السيدة رملة بنت أبى سفيان رضى الله عنهما [1]:

يقال: إن المرأة على دين زوجها لكن أم حبيبة تُعلم النساء أن المرأة يجب أن تكون على حق، وأن تتمسك بعقيدتها الصحيحة وإيمانها القوى، وتثبت على ذلك كالجبال الرواسى، لاتؤثر فيها الرياح الهوجاء.

وفى صحبة هذه السيدة الجليلة الثابتة على المبـدإ المتمـسكة بـالحق، نعـيش هـذه اللحظات:

اسمها: رملة بنت أبى سفيان، صخر بن حرب بن أمية بن عبد شـمس، وأمهـا: صفية بنت أبى العـاص بـن أميـة، ويظهـر مـن نـسبها الأصـالة والعراقـة؛ فأبوهـا أبوسفيان، سيد من سادات قريش، وهى من جهة الأبوين من بنى أمية التـى كانـت تشارك بنى هاشم شرف السيادة على مكة، وأخوها معاوية مؤسس الدولة الأموية.

نشأتهـا: نشـأت السيـدة أم حبيبة فى هذا البيت الأُموى، وتزوجت حليـف بنـى أمية: عبيد الله بن جحش فى وثنية قريش، فتركهـا ودان بالنـصرانية، ثـم أسـلم هـو وزوجته السيدة رملة، ثم هاجرا إلى الحبشة، فولدت له حبيبة فيها، وبها كُنيـت بـأم حبيبة، ثم ارتد زوجها فى الحبشة عن الإسلام وتنصر وكان يمر بأصـحاب رسـول الله ﷺ هنالك ويغرى مهاجرى الحبشة على التنصر، تقول أم حبيبة:

---

(1) راجع: سير أعلام النبلاء: (2ص218)، طبقات ابن سعد (8ص96-100)، الإصابة (8ص84).

«رأيت فى المنام كأن عبيد الله بن جحش زوجى بأسوإ صورة وأشوهه، ففزعت؛ فأصبحت، فقلت: تغيرتُ والله حاله، فإذا هو يقول حين أصبح: يا أم حبيبة! إنى نظرت فى الدين فقلت: فلم أر دينًا خيرًا من النصرانية، وكنت قد دنت بها فى الجاهلية، ثم دخلت فى دين محمد، ثم رجعت إلى النصرانية، فقلت: والله هو خير لك، وأخبرته بالرؤيا التى رأيت فلم يحفل بها وأكبَّ على الخمر حتى مات، فأتانى آتٍ فى نومى، فقال: يا أم المؤمنين! ففزعت، وأوَّلتها أن رسول الله يتزوجنى.

زواجها برسول الله ﷺ:

لما انقضت عدة أم حبيبة ما شعرت إلا برسول النجاشى ملك الحبشة يستأذن، فإذا هى جارية يقال لها: أبرهة، كانت تقوم على ثيابه ودهنه، فدخلت على أم حبيبة قائلة: إن الملك يقول لك: إن رسول الله ﷺ كتب إلى أن أزوجه، فقالت: بشرك الله بخير، قالت: يقول لك الملك: وكِّلى من يزوجك، فأرسلت إلى خالد بن سعيد بن العاص، فوكلته وأعطت أبرهة سوارين من فضة وخدمتين -خلخالين-، كانتا فى رجليها، وخواتيم فضة كانت فى أصابع رجليها، سرورًا بما بشرتها، فلما كان العشى أمر النجاشى جعفر ابن أبى طالب ومن هناك من المسلمين فحضروا، فخطب النجاشى، فقال: الحمد لله، الملك القدوس المؤمن المهيمن العزيز الجبار، أشهد أن لا إله إلا الله وأن محمدًا عبده ورسوله، وأنه الذى بشر به عيسى ابن مريم ﷺ أما بعد:

فإن رسول الله ﷺ كتب إلى أن أزوجه أم حبيبة بنت أبى سفيان؛ فأجبت إلى مادعا إليه رسول الله ﷺ وقد أصدقتها أربعمائة دينار، ثم سكب الدنانير بين يدى القوم، فتكلم خالد بن سعيد فقال:

الحمد لله، أحمده وأستعينه وأستنصره وأشهد أن لا إله إلا الله، وحده لا شريك له وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله، أرسله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله ولو كره المشركون أما بعد:

فقد أجبت إلى ما دعا إليه رسول الله ﷺ وزوجته أم حبيبة بنت أبى سفيان، فبارك الله لرسول الله ﷺ.

ودفع الدنانير إلى خالد بن سعيد بن العاص، فقبضها، ثم أرادوا أن يقوموا، فقال: اجلسوا فإن من سنة الأنبياء إذا تزوجوا أن يُؤكل طعام على التزويج، فدعا بطعام وأكلوا، ثم تفرقوا، قالت أم حبيبة: فلما وصل إلى المال، أرسلت إلى أبرهة التى بشرتنى، فقلت لها: إنى كنت أعطيتك ما أعطيتك يومئذٍ ولا مال بيدى، فهذه خمسون مثقالًا فخذيها فاستعينى بها، فأبت وأخرجت حُقًّا فيه كل ما كنت أعطيتها، فردته على وقالت: عزم على الملك أن لا أرزأك شيئًا، وأنا التى أقوم على ثيابه ودهنه وقد اتبعت دين محمد رسول الله ﷺ، وأسلمت لله -عز وجل-.

وقد أمر الملك نساءه أن يبعثن إليك بكل ما عندهن من العطر، قالت: فلما كان الغد، جاءتنى بعود وورس وعنبر وزباد -عطر- كثير، فقدمت بذلك كله على رسول الله ﷺ فكان يراه على وعندى فلا ينكره، ثم قالت أبرهة: فحاجتى إليك أن تقرئى على رسول الله ﷺ منى السلام وتعلميه أنى قد اتبعت دينه، قالت: ثم لطفت بى وكانت التى جهزتنى، وكانت كلما دخلت على تقول: لا تنسى حاجتى إليك، قالت أم حبيبة: فلما قدمت على رسول الله ﷺ أخبرته كيف كانت الخطبة وما فعلت بى أبرهة فتبسم وأقرأته منها السلام، فقال: «وعليها السلام ورحمة الله وبركاته».

وكان زواج الرسول الكريم بأم حبيبة عملًا حكيمًا، حفظ به رسول الله ﷺ على أم حبيبة إسلامها، بل كان من العوامل التى دفعت أباها أبا سفيان إلى الإسلام بعد أن ناصب الرسول ﷺ العداوة أكثر من عشرين سنة، فلم تمض سنة واحدة حتى كان فتح مكة وإسلام أبى سفيان سنة ثمان 8 هـ ؛حيث تم زواج ابنته سنة سبع 7 هـ، ولما بلغه زواجها قال: ذلك الفحل لا يُقدع أنفه، وتفردت أم حبيبة على سائر نساء النبى ﷺ بأنها أقرب إليه نسبًا؛ لأنها من بنات عمه، وليس فى نسائه من هو أكثر صداقًا منها، وليس فى نسائه من تزوج بها وهى نائية الدار أبعد منها.

أم حبيبة فى بيت الرسول ﷺ:

1- ضربت أم حبيبة أروع الأمثال فى إيثار العقيدة على ما سواها، وكان إيمانها بالله ورسوله أحب إليها مما سواهما، ففى سبيل الدين تركت الوطن، وهاجرت من مكة إلى الحبشة، وفى سبيل الدين فارقت زوجها، وفى سبيل الدين حافظت على فراش النبى ﷺ من أن يمسه غيره، ولو كان أباها؛ يُروى أن أباها أبا سفيان قدم المدينة ورسول الله ﷺ جاء يريد غزو مكة، فكلمه أن يزيد فى هدنة الحديبية، فلم يقبل عليه رسول الله ﷺ، فقام ودخل على ابنته أم حبيبة، فلما ذهب؛ ليجلس على فراش النبى ﷺ طوته دونه، فقال: يا بنية أرغبت بهذا الفراش عنى أم بى عنه؟ فقالت: بل هو فراش رسول الله ﷺ وأنت امرؤ نجس مشرك، فقال: يا بنية! لقد أصابك بعدى شر.

2- عاشت أم حبيبة فى كنف رسول الله ﷺ تسعد بطلعته، وتشرف بالارتباط به، وتنهل من معينه الذى لا ينضب، وتحفظ عنه الأحاديث، حيث روت عنه خمسة وستين حديثًا، وتعمل على إسعاده، وكانت كما مر تستعمل الطيب، وكان رسول الله ﷺ يراه عليها وعندها فلا ينكره.

3- إذا كان من الطبيعى أن يكون بين الضرائر شيء فتلك سُنة مألوفة لكن السيدة أم حبيبة رضى الله عنها لم تكن بالتى تتكبر على الحق، أو لا تستجيب إلى الخير، ولنا أن نتأمل هذا المشهد الرائع الذى تقصه علينا السيدة عائشة رضى الله عنها بقولها:

دعتنى أم حبيبة عند موتها فقالت: قد كان يكون بيننا ما يكون بين الضرائر، فغفر الله لى ولك، وما كان من ذلك، فقلت: غفر الله لك ذلك كله وتجاوز وحلك من ذلك كله، فقالت: سررتنى سرَّك الله، وأرسلت إلى أم سلمة، فقالت لها مثل ذلك وتُوفيت أم حبيبة سنة أربع وأربعين هجرية فى خلافة معاوية.

رضى الله عن أم حبيبة وأرضاها.

10ـ السيدة صفية بنت حيي بن أخطب، أم المؤمنين رضى الله عنها[1].

مع الشريفة الحسيبة النسيبة الجميلة المؤمنة؛ مع أم المؤمنين صفية، نتعرف على سيرتها العطرة، ونلتمس آثارها النافعة.

نسبها: هى صفية بنت حُيى بن أخطب، من سبط لاوى بن يعقوب بن إسحاق ابن إبراهيم عليهم السلام، ثم من ذرية رسول الله هارون بن عمران أخى موسى – عليهما السلام–.

زواجها قبل رسول الله ﷺ: تزوجت سلام بن أبى الحُقيق، ثم خلف عليها كنانة ابن أبى الحقيق، وكان من شعراء اليهود، ومن بنى عمها من بنى النضير، فقُتل كنانة يوم خيبر عنها.

زواج الرسول ﷺ بأم المؤمنين صفية:

لما أجلى رسول الله ﷺ يهود بنى النضير من المدينة لغدرهم برسول الله ﷺ حين ذهب إليهم يستعينهم فى دية لقتيلين من بنى عامر، ولهم عهد من رسول الله، وحلف كذلك مع بنى النضير، وبينما رسول الله ﷺ إلى جنب جدار من بيوتهم؛ إذ خلا بعضهم ببعض، فقالوا: إنكم لن تجدوا الرجل على مثل حاله هذه، فمن رجل يعلو على هذا البيت فيُلقى عليه صخرة فيريحنا منه؟ فأتى رسول الله الخبر من السماء بما أراد القوم وخرج راجعًا إلى المدينة، وأمر رسول الله ﷺ بالتهيؤ لحربهم والمسير إليهم، ثم سار حتى نزل بهم، فتحصنوا منه فى الحصون، ثم سألوا رسول الله ﷺ أن يجليهم ويكفَّ دماءهم، فذهب عامتهم إلى خيبر وفيهم حُيى بن أخطب والد السيدة صفية، وبنو أبى الحقيق، وكانوا ذوى أموال وشرف فى قومهم، وكانت صفية إذ ذاك طفلة دون البلوغ.

(1) راجع: سير أعلام النبلاء: (2ص231)، طبقات ابن سعد (8ص120)، الإصابة: (8ص126).

وكان أبوها مصدرًا من مصادر الإفساد ومحاربة الله ورسوله، حيث كان هو وزوجها سلام بن أبى الحقيق من الذين حزّبوا الأحزاب على رسول الله ﷺ، ودعوا قريشًا إلى حربه، وكان اليهود دائمًا وأبدًا مبعث فتنة، ومنبع غدر وخيانة، وكان لابد أن يقف رسول الله ﷺ وقفة حاسمة مع آخر الجماعات اليهودية فى خيبر، وتمَّ ذلك سنة سبع من الهجرة.

بعد هذا التمهيد نقول: فتح رسول الله ﷺ خيبر وغنم منها أشياء كثيرة، وقُتل فيها زوج السيدة صفية وأخوها وأبوها، ووقعت صفية فى السبى، يُروى أن السيدة صفية كانت عروسًا لما نزل النبى ﷺ خيبر؛ فرأت فى المنام أن الشمس نزلت حتى وقعت على صدرها، فقصت ذلك على زوجها، فقال: ما تمسين إلا هذا الملك الذى نزل بنا -يريد رسول الله-.

وقد جاء فى رواية أخرى أنه كان بعينى صفية خضرة -سواد-، فقال لها النبى ﷺ: «**مَا هَذِهِ الْخُضْرَةُ بِعَيْنَيْكِ؟**» قالت: قلت لزوجى: إنى رأيت فيما يرى النائم كأن قمرًا وقع فى حجرى؛ فلطمنى، وقال: أتريدين ملك يثرب؟ قالت: وما كان أبغض إلى من رسول الله ﷺ، قَتل أبى وزوجى، فما زال يعتذر إلى، وقال: «**يَا صَفِيَّةُ! إِنَّ أَبَاكِ أَلَّبَ** -جمع- **عَلَيَّ الْعَرَبَ، وَفَعَلَ**» حتى ذهب ذلك من نفسى.

لقد عمل رسول الله ﷺ على جبر خاطرها، وأنعم عليها بالزواج منها، وأكرمها بالارتباط به رغم ما فعله يهود بنى النضير، واصطفاها رسول الله ﷺ لنفسه بعد أن خيرها بين أن يعتقها؛ فترجع إلى من بقى من أهلها، حيث لم يشأ رسول الله ﷺ أن يسترق قبيلتها، أو تسلم لله رب العالمين، فيتخذها لنفسه، فقالت: أختار الله ورسوله.

تقول السيدة صفية: ما رأيت أحدًا أحسن خُلقًا من رسول الله ﷺ، لقد رأيته وقد ركب بى من خيبر على عجز ناقته ليلًا، فجعلت أنعس فضرب رأسى ويقول:

«**يا هذا مهلًا يا بنت حُيى مهلًا**»، وأقام رسول الله ﷺ بين خيبر والمدينة حيث بلغ موضعًا -سد الصهباء- مع صفية بعد أن حلت وتطهرت، ودعا المسلمين إلى وليمته -تمرًا والأقط -لبن يابس- وسمنًا- ونحو هذا قائلًا: «**كلوا وليمة أمكم**» وكان سنُّها آنذاك سبعة عشر عامًا.

صفية فى بيت رسول الله ﷺ:

عانت صفية فى بيت رسول الله ﷺ غيرة الضرائر، وهذا أمر فُطرت عليه النساء، وكانت الدواعى لتلك الغيرة من نساء النبى كثيرة منها: الجمال، ومنها النسب اليهودى، ولكن النبى ﷺ كان حاسمًا فى مواقفه، حتى لا يتجاوز طرف موضعه، يُروى أن السيدة حفصة قالت للسيدة صفية: بنت يهودى، فبكت فدخل عليها النبى ﷺ وهى تبكى، فقال: «**ما يبكيك؟**» فقالت: قالت لى حفصة: إنى بنت يهودى، فقال النبى ﷺ: «**إِنَّكِ لَابْنَةُ نَبِى وَإِنَّ عَمَّكِ لَنَبِى وَإِنَّكِ لَتَحْتَ نَبِى فَفِيمَ تَفْخَرُ؟!**»، ثم قال: «**اتَّقِى اللهَ يَا حَفْصَةُ**».

لقد أسلمت السيدة صفية وحَسُنَ إسلامها، فما ينبغى لأحد من نسائه أن يعيرنها بيهوديتها، أو ينسبنها إليها، وإذا كان الرسول الكريم اكتفى فى بداية الأمر بالزجر والوعظ لنسائه فإنه ﷺ تجاوز حد الوعظ إلى حد الهجر فى هذا الجانب، فقد حدث أن النبى ﷺ حجَّ مع نسائه، فبرك بصفية جملها، فبكت وجاء رسول الله ﷺ لما أخبروه، فجعل يمسح دموعها بيده وهى تبكى وهو ينهاها، فنزل رسول الله ﷺ بالناس، فلما كان عند الرواح، قال لزينب بنت جحش «**أفقرى -أعيري- أختك جملًا**»، وكانت من أكثرهن ظهرًا -دوابًا- فقالت: أنا أفقر يهوديتك؟؟

فغضب رسول الله ﷺ فلم يكلمها حتى رجع إلى المدينة وهجرها ذا الحجة والمحرم وبعض صفر.

ويُروى أن عائشة عيرتها بقولها للنبى: حسبك من صفية كذا وكذا -تعنى قصيرة-، فقال رسول الله ﷺ: «**لَقَدْ قُلْتِ كَلِمَةً لَوْ مُزِجَتْ بِمَاءِ الْبَحْرِ لَمَزَجَتْهُ**». ترهيب شديد يجعل صاحبه يقلع عما ارتكبه من إثم، ويتوب عما فعله من ذنب.

وبالجملة لم يدع رسول الله ﷺ أحدًا من نسائه ينال السيدة صفية بسوء حتى عند وفاته ﷺ؛ حيث تقول صفية: والله يا نبى الله! لوددت أن الذى بك بى، فغمزها أزواجه، فأبصرهن فقال: «**مضمضن**»، قلن: من أى شىء؟ قال: «**من تغامزكن بها والله إنها لصادقة**».

عُرفت السيدة صفية بفضلها وحسن خُلقها وجُودها، يُروى أنها قدمت وفى أذنيها رخرصة -حلق صغير من الذهب-، فوهبت لفاطمة منه ولنساء معها، فكانت محبة لأهل البيت، مرتبطة بهم، عارفة لأقدارهم.

وقد روت عن رسول الله ﷺ عشرة أحاديث، اتفق البخارى ومسلم على واحد منها: «أنها جاءت إلى رسول الله ﷺ تزوره فى اعتكافه فى المسجد فى العشر الأواخر من رمضان فتحدثت عنده ساعة، ثم قامت تنقلب - أى تعود - إلى بيتها، فقام النبى ﷺ معها يقلبها، حتى إذا بلغت باب المسجد عند باب أم سلمة، مر رجلان من الأنصار فسلما على رسول الله ﷺ، فقال لهما النبى ﷺ: «**عَلَى رِسْلِكُمَا** -مهلكما- **إِنَّهَا صَفِيَّةُ بِنْتُ حُيَى**»، فقالا: سبحان الله! يارسول الله! وكبر عليهما، فقال النبى ﷺ: «**إِنَّ الشَّيْطَانَ يَجْرِى مِنْ ابْنِ آدَمَ مَجْرَى الدَّمِ وَإِنِّى خَشِيتُ أَنْ يَقْذِفَ فِى قُلُوبِكُمَا شَيْئًا**».

وعاشت أم المؤمنين صفية بعد رسول الله ﷺ حياة كريمة، وكان لها موقف مشهود فى الدفاع عن سيدنا عثمان وقت الفتنة التى أدت إلى قتله، حيث خرجت؛ لتردَّ عن عثمان، ولما لم تتمكن بسبب أحد الخارجين من أرباب الفتنة، وضعت خشبًا من منزلها إلى منزل عثمان تنقل عليه الماء والطعام.

وبعد حياة حافلة بالعبادة ومكارم الأخلاق تُوفيت السيدة صفية سنة اثنتين وخمسين ودُفنت بالبقيع.

رضى الله عن أم المؤمنين صفية.

ونحن نتساءل:

لماذا لا يذكر أحد أن أم المؤمنين صفية قد تزوجت قبل رسول الله ﷺ مرتين، وهى دون العشرين من عمرها؟

أليس هذا دليلًا على أن الزواج المبكر كان شائعًا آنذاك؟ هل هناك امرأة تقبل الزواج وتعيش مع رجل كان سببًا فى قتل أبيها وزوجها وأقاربها، مهما كانت الظروف؟

لماذا لم تتحين الفرصة فى التخلص منه؟ وهى قادرة على ذلك، والمرأة لا تعجز عن هذا الأمر؟

لماذا تخلص مثل هذه المرأة كل هذا الإخلاص وتظهر كل هذا الحب لهذا الرجل؟

ماذا وجدت صفية فى محمد بن عبد الله؛ حتى تتمنى أن تموت هى ولا يموت هو؟!!!

11- السيدة ميمونة بنت الحارث الهلالية رضى الله عنها [1]:

قال رسول الله ﷺ: «الأَخَوَاتُ مُؤْمِنَاتٌ: مَيْمُونَةُ وَأُمُّ الْفَضْلِ وَأَسْمَاءُ».

وتقول أم المؤمنين عائشة رضى الله عنها عن ميمونة رضى الله عنها: (..إنها كانت من أتقانا لله وأوصلنا للرحم).

أسرة طيبة، ونسب عريق، اتصلت به أم المؤمنين ميمونة، فهى:-

ميمونة بنت الحارث الهلالية، وأمها: هند بنت عوف بن زهير القرشية، وأخواتها لأبيها وأمها:

- أم الفضل: لبابة الكبرى بنت الحارث؛ زوج العباس بن عبد المطلب عم الرسول الكريم ﷺ، ولبابة الصغرى زوج الوليد بن المغيرة المخزومى.
- وعصماء بنت الحارث كانت تحت أُبى بن خلف الجُمحى.
- وعزة بنت الحارث كانت تحت زياد بن عبد الله بن مالك.

فهؤلاء أخوات ميمونة لأب وأم.

أما أخواتها لأمها: فأسماء بنت عميس، وسلَّامة بنت عميس، كانت تحت عبد الله بن كعب الخثعمى، ثم أم المؤمنين زينب بنت خزيمة أخت ميمونة لأمها.

فأم المؤمنين ميمونة خالة جماعة من الصحابة الكرام، كعبد الله بن العباس، وخالد بن الوليد، وعبد الله بن جعفر، ومحمد بن أبى بكر.

أما قصة زواجها برسول الله ﷺ: فتدل على مدى عناية الإسلام بالأرامل، حيث تأيمت ميمونة من زوجها أبى رُهم بن عبد العُزى، وكان قد تزوجها بعد مسعود

(1) راجع: سير أعلام النبلاء: (2ص238) طبقات ابن سعد (8ص132)، الإصابة: (8ص191).

ابن عمرو بن عمير الثقفى الذى تزوجها فى الجاهلية، ثم فارقها، فلما مات عنها أبورُهم، عرضها العباس عم النبى ﷺ عليه، وذلك سنة سبع فى عمرة القضاء بعد صلح الحديبية، فقبل النبى ﷺ، وجعلت ميمونة أمرها إلى العباس، فتزوجها رسول الله ﷺ، وقد انتشر الاختلاف بين الفقهاء: هل تزوج النبى ﷺ ميمونة رضى الله عنها وهو محرم بالعمرة أم لا؟

فجزم ابن عباس م بأنه تزوجها وهو محرم، وقال بذلك جماعة من الفقهاء وجزم آخرون بأن النبى ﷺ تزوجها حلالًا ولم يكن محرمًا.

فقد روى يزيد بن الأصم عن خالته ميمونة أن النبى ﷺ تزوجها حلالًا، وبنى بها حلالًا، وماتت بسرف (بين الحرمين، قريب من مكة) فى الظلة التى بنى بها فيها -أى ماتت فى نفس المكان الذى تزوجها فيه- وعن أبى رافع قال: تزوج رسول الله ﷺ ميمونة وهو حلال، وبنى بها وهو حلال، وكنت أنا الرسول بينهما.

فالراجح أن ميمونة تزوجها النبى ﷺ وهما حلالان، لا سيما وأن راوية الخبر السيدة ميمونة وهى أعلم بنفسها، وأبو رافع صاحب القصة هو السفير بينهما، فهما أعلم بذلك من ابن عباس، وأولى بالتقديم، لو كان ابن عباس كبيرًا، فكيف وقد كان صغيرًا، وقد أنكر على ابن عباس هذا القول، وقال سعيد بن المسيب: وَهَمَ ابن عباس، وما تزوجها النبى ﷺ إلا حلالًا!

وقد أوَّل هؤلاء العلماء قول ابن عباس: (وهو مُحرم) أى فى الشهر الحرام، أو فى البلد الحرام. وقيل: تزوجها حلالًا، وظهر أمر تزوجها وهو محرم.

وثمرة المسألة: أنه لا يجوز للمحرم أن يتزوج ولا يكون وليًّا فى النكاح ولا وكيلًا فيه، وكذلك المحرمة، فهذا من محظورات الإحرام فى الحج والعمرة، روى ذلك عن عمر وابنه، وزيد بن ثابت ن وبه قال سعيد بن المسيب وسليمان بن يسار والزهرى

والأوزاعى ومالك والشافعى وأحمد، واستدلوا بحديث عثمان بن عفان رضى الله عنه: قال: قال رسول الله ﷺ: «لَا يَنْكِحُ الْمُحْرِمُ وَلَا يُنْكَحُ وَلَا يَخْطُبُ» رواه مسلم.

وأجاز ذلك ابن عباس، وهو قول أبى حنيفة.

كانت السيدة ميمونة من سادات النساء إيمانًا بالله وتمسكًا بسنة رسول الله ﷺ، وتعليمًا للأمة أمور دينها وشرع ربها، وأمرًا بالمعروف ونهيًا عن المنكر، وسجلت لنا كتب السنة والتراجم والتاريخ كثيرًا من مواقفها نذكر منها على سبيل المثال لاالحصر:

- روى ابن عباس عن خالته ميمونة قالت: أجنبت أنا ورسول الله ﷺ فاغتسلت من جفنة، ففضلت فضلة، فجاء النبى ﷺ فاغتسل منها؛ فقلت: إنى قد اغتسلت منها، فقال: «لَيْسَ عَلَى الْمَاءِ جَنَابَةٌ!»

موقف رائع يصور لنا خلق رسول الله ﷺ وتواضعه وحكمته، فالنبى ﷺ لم يأنف أن يغتسل من الماء الباقى بعد غسل السيدة ميمونة، وهو فى نفس الوقت يربينا على حسن استخدام الماء، وينهانا عن الإسراف، ويدعونا إلى الاقتصاد فى الماء بشكل عملى، ويقرر بوضوح أن ما تبقى من الماء لا تصيبه نجاسة فهو طاهر مطهر لا شيء فيه، فما بال أولئك الذين يرمون بقية الماء بعد شرب أو اغتسال، ألم يعلموا أن سؤر المؤمنين طهور، أى ما تبقى بعد شرابهم؟! ألم يعلموا أن الله لا يحب المسرفين؟ فلا يسرفوا فى الماء ولو كانوا على نهر جارٍ.

فها هو رسول الله يغتسل وميمونة من إناء واحد.

روى عبد الله بن شداد عن ميمونة قالت: كان رسول الله ﷺ يصلى فى مسجده على نمرة -نوع من الثياب- وأنا نائمة إلى جنبه فيصيبنى ثوبه وأنا حائض.

فى هذا الموقف الكريم تصور لنا السيدة ميمونة رضى الله عنها بساطة الحياة التى كان يحياها رسول الله ﷺ مع نسائه، فالحجرة التى تعيش فيها مع الحبيب النبى ﷺ

حجرة صغيرة متواضعة، وقد وضع النبى شيئًا كحصير يصلى عليه، وميمونة نائمة إلى جنبه، فقد كان النبى ﷺ يقوم الليل حتى تتفطر قدماه وتتشقق رجلاه، وتذكر لنا أم المؤمنين ميمونة أنها كانت حائضًا ومع ذلك لم يكن رسول الله يعتزل نساءه، كما تفعل بعض الأديان كاليهودية التى تجعل الحيض سببًا لنجاسة المرأة وكل من يتصل بها إنسانًا أو جمادًا.

لقد حرم الإسلام جماع المرأة الحائض فقط، وأحلّ ما وراء ذلك.

- يُروى عن يزيد بن الأصم أن ذا قرابة لميمونة دخل عليها فوجدت منه ريح شراب فقالت: لئن لم تخرج إلى المسلمين فيجلدوك، أو قالت: يطهروك، لا تدخل على بيتى أبدًا.

الله أكبر! إن القرابة لا تعنى المحاباة أو المجاملة، وإن المناصرة لا تشجع الوقوع فى المعاصى، وإن الإيمان الصادق يدفع صاحبه إلى قول الحق لا يخشى لومة لائم.

- إن المواقف كثيرة، وإن المساحة قصيرة، فلا يبقى لنا إلا الدعاء لخاتمة النساء، وآخر أزواج سيدنا رسول الله ﷺ التى ماتت وهى فى الثمانين من عمرها، وصلى عليها ابن عباس وحملها وجعل يقول الذين يحملونها معه: ارفقوا بها، فإنها أمكم. حتى دفنها بسَرِف -مكان- على بُعد عشرة أميال تقريبًا من مكة المكرمة- عام 51هـ.

رضى الله عن أم المؤمنين السيدة ميمونة، وعن جميع أمهات المؤمنين.

* * *

الخاتمة

انتهى بنا الحديث إلى إبراز النتائج التالية:

1- إن تعدد الزوجات فى شريعة الله رخصة، وليس فرضًا.

2- إن إباحة التعدد مقيد بشرطين: عدم خوف العدالة، والقدرة على الإنفاق.

3- إن إساءة استخدام هذه الرخصة لا ينفى تحقق الفائدة منها.

4- إن تعدد الزوجات أمر معروف فى جميع الأديان وفى مختلف الأزمان، من القديم حتى الآن.

5- ليس تعدد الزوجات نظامًا بدائيًّا شرعة الإسلام مراعاة لطبيعة العرب الشهوانية، فإن تعدد الزوجات عرفته اليهودية والنصرانية والأمم القديمة والمجتمعات المعاصرة، بل إن العرب لم يبلغوا ما بلغه الآخرون فى العَلاقات الجنسية الطبيعية والشاذة.

6- تعدد الزوجات أمر دينى، لا ينفصل عن الدنيا، فهو من شؤون الأسرة والمجتمع، نزل بالتعدد قرآن، وسنة، وتناوله العلماء والفقهاء بالتفصيل، والاستقصاء.

7- ليس فى القرآن تعارض يمنع التعدد، فالأمر بالعدل فيها يستطيعه عقل الرجل من طعام وشراب ومبيت ونحو ذلك، ونفى العدل فيها لا يستطيعه قلب الرجل من عواطف ومشاعر وأحاسيس.

8- ليس فى التعدد ظلم للمرأة؛ المرأة لا تُجبر على التعدد بل لا تجبر على الزواج الأول، ومبررات التعدد كثيرة: بعضها اجتماعى، وبعضها اقتصادى، وبعضها أخلاقى، وبعضها عسكرى، وبعضها سياسى، وبعضها دينى. ومعلوم أن المرأة المسلمة، فى ظل التعدد- كونت أسرة، وأعدت رجالًا، وقدمت أبطالاً، وساهمت فى تأسيس أمة، وتكوين حضارة.

9- ما منع رسول الله ﷺ على بن أبى طالب من الزواج على فاطمة، بل إن الموقف نفسه دليل على احترام المرأة، ووفاء بحقها، فى احترام مشاعرها، وتنفيذ شرطها إذا رأت أن التعدد يؤذيها، فلها حق الفسخ، وحق الخيار بين البقاء والطلاق.

فأحق الشروط بالوفاء ما تُستحل به الفروج، فهل بقيت هناك شبهة؟

أم أن التعصب الأعمى هو منبع الشرور ومصدر الفجور؟

وصدق الله القائل:

﴿ أَفَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ وَأَضَلَّهُ ٱللَّهُ عَلَىٰ عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلَىٰ سَمْعِهِۦ وَقَلْبِهِۦ وَجَعَلَ عَلَىٰ بَصَرِهِۦ غِشَٰوَةً فَمَن يَهْدِيهِ مِنۢ بَعْدِ ٱللَّهِ ۚ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴾ [الجاثية: 23].

10- لم يكن زواج رسول الله ﷺ لشهوة، فقد قضى زهرة شبابه مع زوجة واحدة، ولم يجمع معها امرأة أخرى، وكان زواج رسول الله بعد وفاة خديجة رضى الله عنها لحكمة إنسانية، أو اجتماعية، أو تشريعية، أو أخلاقية، ولم تكن حياة رسول الله ﷺ حياة اللاهى العابث.

* * *

أهم المراجع

1- القرآن الكريم.
2- متون السُّنة:
(مسند أحمد - صحيح البخاري- صحيح مسلم- سنن الترمذى - سنن النسائى- سنن أبى داود- سنن ابن ماجه - صحيح ابن حبان- مسند أبى يعلى- ومعاجم الطبراني).
3- كتب التفسير:
تفسير ابن كثير- تفسير الألوسى (روح المعاني)، فى ظلال القرآن للأستاذ سيد قطب، تفسير المنار للسيد محمد رشيد رضا.
4- كتب الفقه:
المبسوط للسرخسى، بدائع الصنائع للكاسانى، المدونة الكبرى، وبداية المجتهد لابن رشد، والأم للشافعى، والمغنى لابن قدامة، وفقه السنة للشيخ سيد سابق.
5- كتب اللغة:
لسان العرب.
6- مراجع عامة:
الكتاب المقدس (العهد القديم - العهد الجديد).
الإسلام واتجاه المرأة المعاصرة/ د. محمد البهى.
الأسرة بين التشريع الإسلامى والقوانين الوضعية: (فوزى شرف الدين).
بين الإسلام، والمسيحية: محمد أبو شامة.
تحرير المرأة: قاسم أمين

تنظيم الأسرة وتنظيم النسل: الإمام محمد أبو زهرة.
رسائل إلى عقل الغرب وضميره: د- عبد الصبور مرزوق
الطوائف المسيحية فى مصر والعالم: ماهر يونان.
فتح البارى: الإمام ابن حجر العسقلانى.
الفتح الربانى: أحمد عبد الرحمن البنا الساعاتى.
الفكر الإسلامى والمجتمع المعاصر: د. محمد البهى.
قصة الحضارة: ول ديورانت
طبقات ابن سعد
حياة محمد: إميل در منغم
حضارة العرب: جوستاف لوبون.
فقه السيرة: الشيخ محمد الغزالى.
قمم إسلامية: محمد أبو زهرة
مدخل إلى القرآن الكريم :محمد عبد الله دراز.
وسائل الإصلاح: الشيخ الخضر حسين
مصر القديمة: سليم حسن.
المفصل فى تاريخ العرب قبل الإسلام: د- جواد على.
ملوك المال والجنس فى العالم: إبراهيم العربى.
النظرية الفردية: د. عويس النجار.
سير أعلام النبلاء.
الإصابة فى تمييز الصحابة.
.... وهناك مراجع أخرى فى ثنايا البحث.

* * *



" ادع إلى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة.. "

(النحل/ 125)

مما لاشك فيه أن نجاح مضمون الكتاب إذاعيًا، جعلت فكرة كتابته ضرورة ملحة، تفرضها تلك الدعاوى الباطلة الشرسة، التى تتعامى عن الحق، وتغض الطرف عن باطن حكمة هذا الحق، ابتغاء إثارة الفتن والتشكيك .. فلم يحظ موضوع بالجدل والمغالطة مثلما حظى موضوع تعدد زوجات الرسول ﷺ .. والمؤلف بما عرف منه من دامغ الحجة وناصع السند، يفند هذه الشبهات التى حصر ملامحها فى خمس شبهات، شبهة فشبهة، ومستخلصًا من خلال ذلك الحقائق التى ترد بين دفتى هذا الموضوع .. ومختتمًا الكتاب بسيرة أمهات المؤمنين (رضوان الله عليهن أجمعين) .. وذلك كله لايتم استرسالاً أو انطباعًا، وإنما من خلال الرجوع للمصادر المعتبرة والمعتمدة فى بابها.. الكتاب يتلمس آفاق الدعوة المستنيرة إلى أن نحكم عقولنا وقلوبنا، ولانقف عند بوابة العقل المجرد وحده، لتستبين الحقائق على وجهها الصحيح.

الدار المصرية اللبنانية

6 222006 315566